

الباب الأول

تأثير الديمقراطية في الحركة العقلية  
في الولايات المتحدة

## الفصل الأول

### منهج الأمريكيين الفلسفي

لا أعرف بلداً من بلاد العالم المتحضر يعنى بالفلسفة أقل مما تعنى به الولايات المتحدة . فليس للأمريكيين مدرسة فلسفية خاصة بهم ، ولا هم يحفلون إلا قليلاً بجميع تلك المدارس الفلسفية التي انقسمت إليها أوروبا ، بل ولست أعالي إن قلت إنهم لا يعرفون حتى أسماءها<sup>(١)</sup> .

ومع ذلك فلا يشق علينا أن ندرك أن جل سكان الولايات المتحدة ، يستخدمون عقولهم بطريقة واحدة ، ويفكرون بحسب قواعد واحدة . وبعبارة أخرى أنهم ، من غير أن يحشمو أنفسهم مئونة تحديد هذه القواعد ، لهم منهج فلسفي عام يجري عليه الشعب كله في جملته .

فالسمة الرئيسية لذلك الذي أسميه منهج الأمريكيين الفلسفي هي : تحاشيهم أن تستعدهم النظم ، والعادات ، وقواعد الأسرة وبدبياتها ؛ أو أن تستعدهم آراء الطبقات ، وضروب التعصب القومي إلى حد ما ؛ وكذا عدم الأخذ بالتقاليد والعرف إلا من حيث هي وسائل لتحصيل المعارف ، ولا بالحقائق القائمة إلا من حيث هي دروس تستخدم في تأدية ما يعملونه بطريقة أخرى ، وعلى صورة أفضل ؛ والبحث عن أسباب الأشياء لأنفسهم ، وفي أنفسهم وحدها ؛ والعناية بالنتائج من غير تقيد بالوسائل المؤدية إليها ؛ والنفاذ من الصورة إلى الجوهر : تلك هي سمات منهج الأمريكيين الفلسفي .

وإن أنا سرت إلى أبعد من هذا مدى ، وبجئت بين هذه السمات والخصائص المختلفة ، عن السمة الرئيسية فيها التي تكاد تشمل سائرهما كله ، لوجدت أن كل أمريكي لا يلجأ في معظم العمليات العقلية التي يقوم بها العقل البشري ، إلا إلى ذلك الجهد الفردي الذي يقوم به عقله هو .

فأمريكا إذن من أقل البلاد التي تدرس فيها مبادئ ديكارت<sup>(٢)</sup> . ولكنها مع ذلك

---

(١) كان هذا صحيحاً في عصر المؤلف إلى حد ما . ولكنه لم يعد كذلك الآن فللأمريكيين مدارسهم الفلسفية التي من أبرزها الرجولية .

(٢) رنيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) الفيلسوف الفرنسي المشهور الذي يعد أبا الفلسفة الحديثة فضلاً عن عنايته بالعلم والرياضيات . ومن أشهر كتبه الفلسفية . مقال في المنهج (idiscours de la methode) الذي نشره سنة ١٦٣٧

من خير ما يطبقها . ولا عجب في هذا . فالأمريكيون لا يقرأون مؤلفات هذا الفيلسوف لأن أحوالهم الاجتماعية تعوقهم عن العناية بالدراسات التأملية ، وإن كانوا مع ذلك يتبعون قواعد منهجه ، لأن أحوالهم الاجتماعية هذه نفسها تجعل عقولهم ميالة بفطرتها إلى اتباع هذه القواعد والعمل بها .

ففي وسط الحركة الدائبة التي تسود كل مجتمع ديمقراطي . نجد الأواصر التي تربط كل جيل باخر تسترخي أو تنفصم ، وعندئذ سرعان ما يفقد كل فرد في ذلك المجتمع كل أثر لأفكار جداده . أو هو لا يحرص عليها ولا يوليها أى اهتمام .

فالناس الذين يعيشون في مثل هذه الحالة الاجتماعية لا يستمدون معتقداتهم من آراء الطبقة التي ينتمون إليها ؛ ذلك لأنه لم تعد بينهم طبقات ، أو أن الطبقة التي بقيت صارت تتكون من عناصر قلقة سريعة التغير لدرجة لا يستطيع معها المجموع أن يشرف على أفرادها إشرافاً حقيقياً ناجماً .

أما من حيث تأثير عقل رجل في عقل آخر . فذلك تأثير محدود كل الحد بالضرورة في بلاد كل مواطنها في مستوى واحد . حتى أن كلا منهم ليستطيع أن يرى الآخر عن كتب ، ويرجع دائماً في كل أموره إلى عقله هو باعتباره أوضح مصدر من مصادر الهداية إلى الحقيقة وأقربها إلى نفسه ، وذلك لعدم وجود أدلة ملموسة أمامهم . لا يتنازع فيها اثنان ، على عظمة واحد منهم وتفوقه على سواه . هذا . وليست الثقة بمثل هذا الرجل أو ذاك وحدها هي التي زالت بذلك فحسب ، بل زال معها كذلك الميل إلى الثقة برأى أى إنسان من غير دليل . مهما كان حجة في موضوعه . فلا غرو إذن أن انطوى كل إنسان على نفسه ، وعزم على ألا يحكم على شيء في هذه الدنيا إلا من وجهة نظره هو .

فعادة الأمريكيين هذه - عادة ألا يحكموا على الأمور إلا بحسب ما توحى به إليهم عقولهم وحدها - وجهت تفكيرهم إلى اعتياد عادات أخرى . فبعد أن رأوا أنهم مجردوا في التغلب على كل مصاعبهم الصغيرة التي صادفتهم في حياتهم العملية دون سحاجة إلى الاستعانة برأى أحد ، سارعوا واستبطنوا من ذلك أن كل شيء في هذا العالم يمكن أن يفسر ويعمل في سهولة ويسر ، وأن ليس فيه شيء يند عن حدود الأفهام . ومن ثم وقعدوا في إنكار كل شيء لم يستطيعوا فهمه ولا تعليله مما لم يدع لهم سوى القليل من الإيمان بكل شيء خارق للعادة ، وصاروا ينفرون كل النفور من كل شيء فوق الطبيعة . وإذا اعتادوا باعتبار فهم أنفسهم ، ألا يعتمدوا إلا على شهادتهم فقد صاروا يميلون إلى ضرورة أن يدركوا كل ما يسترعى انتباههم ، إدراكاً واضحاً كل الوضوح ، ولذا صاروا يجردونه ما استطاعوا من كل ما يغشيه ، ومن كل ما يفصلهم عنه ويخفيه عن أبصارهم ، كى يروه عن كتب وفي رائعة النهار . وسرعان ما تزدى بهم نزعتهم العقلية هذه إلى التكرار للأشكال والصور ، حتى صاروا يعدونها غلغلا لاجدوى منها ، وأقيمت لتكون حواجز بينهم وبين الوصول الى الحقيقة .

وهكذا لم يجد الأمريكيون بهم حاجة إلى استخدام منهج فلسفى يستمدونه من الكتب، بل وجدوا هذا المنهج فى أنفسهم هم . وهذا يصدق كذلك على ما يحدث فى أوربا . فهذه الطريقة عينها لم تقم ولم تنتشر بين الأوربيين إلا كلما صارت أحوال المجتمع أكثر تعادلاً ومساواة مما كانت عليه من قبل، وصار الناس أكثر شَبهاً بعضهم ببعض . فلتأمل لحظة الصلة التى تربط الفترات التى يتسنى لنا أن نتبع فيها آثار هذا التغير .

لم يتحرج المصلحون، الذين ظهوروا فى القرن السادس عشر من أن يعرضوا بعض مبادئ الاعتقاد القديم الختمية على الفرد، ليفحصها ثم يحكم عليها أو لها بنفسه، إنهم مع ذلك ظلوا يجرمون عليه مناقشة سائر المبادئ والمعتقدات . وفى القرن السابع عشر، ألقى بيكن<sup>(١)</sup>، فى العلوم الطبيعية، وديكارت، فى الفلسفة بمعناها المعهود، الصيغ التقليدية، وهما سلطان الرواية والمأثور، وقوضا سلطة الفقهاء والمدارس الفلسفية . أما فلاسفة القرن الثامن عشر، فقد انتهى بهم الأمر، وهم يعملون على تعميم النتائج التى استنتجوها من المبادئ نفسها، إلى تعميم المبدأ ذاته، فأخضعوا جميع معتقدات المرء لحكمه هو الشخصى .

ومن ذا الذى لا يعرف أن لوثر<sup>(٢)</sup> وديكارت وفولتير قد استخدموا هذا المنهج نفسه، وأنهم لم يختلفوا إلا من حيث المدى الذى يرون وجوب الذهاب إليه فى استخدامه فيه؟ ولم قصر المصلحون أنفسهم كل القصر على نطاق الآراء الدينية وحدها؟ وما الذى دعا ديكارت إلى أن يختار قصر تطبيق منهجه على أمور معينة بالذات، مع أنه جعله صالحاً لأن يصدق على كل شيء، فجعل يعلن للناس أن لهم أن يستعملوا عقولهم، ويحكموا بما يتراءى لهم فى الأمور الفلسفية؛ لافى الأمور السياسية؟ فكيف حدث أن استنبطت جميع هذه التطبيقات العامة دفعة واحدة بالمنهج ذاته فى القرن الثامن عشر، وهى التطبيقات التى لم يدركها ديكارت ولا من سبقوه، أو رفضوا أن يستكشفوها؟ وأخيراً إلام نغزو خروج هذا المنهج الذى نتحدث عنه فجأة فى تلك الفترة، من المدارس، ليتغلغل فى المجتمع حتى أصبح المعيار المعترف به فى قياس صحة التفكير، وأنه بعد ذبوعه بين الفرنسيين، اعتنقته جميع الأمم الأوربية صراحة وعلنا، أو خفية وسراً .

ليكن هذا المنهج الفلسفى، الذى نشير إليه، قد نشأ فى القرن السادس عشر، وتحدد بشكل أتم، وطبق على نحو أوسع، فى القرن السابع عشر؛ ولكنه لا يمكن أن يكون قد اتبع بشكل عام، وانتشر بين الناس، فى هذا القرن وذلك، فالقوانين السياسية وأحوال المجتمع، والعادات العقلية، التى ترتبت على تلك الأحوال، كانت لا تزال كلها ضده .

(١) فرنسيس بيكن (١٥٦١ - ١٦٢٦) الفيلسوف الأديب الإنجليزى الذى يعد أبا الطريقة الاستقرائية فى المنطق والبعث العلمى .

(٢) مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) المصلح الدينى الشهير .

حدث استكشاف هذا المنهج في الوقت الذي شرع فيه الناس يتساوون في أحوالهم الاجتماعية. ولكن اتباعه لا يمكن أن يكون عاماً إلا في العصور التي تكون فيها هذه الأحوال قد أصبحت واحدة للجميع، أو تكاد تكون كذلك، وصار الناس أنفسهم متساوين أو يكادون .

فليس منهج القرن الثامن عشر الفلسفي إذن منهجاً فحسب، بل هو منهج ديمقراطي كذلك، مما يبين لنا السبب في أن أوروبا كلها قد سارعت إلى التسليم به في يسر، فعاون كل العون على تغيير معالم المجتمع فيها . فالفرنسيون لم يهزوا العالم لأنهم كانوا أول أمة عمدت إلى إيجاد منهج فلسفي يسر مهاجمة كل قديم وفتح الطريق لكل جديد .

ولعل سائلاً يقول: ولم كان الفرنسيون يتبعون هذا المبدأ نفسه في الوقت الحاضر بشكل أشد صرامة، ويطبقونه أكثر مما طبقه الأمريكيون، مع أن مبدأ المساواة ليس أقل في أمريكا هذه منه في فرنسا، مع أن الأمريكيين أقدم عهداً به من الفرنسيين؟ يرجع بعض هذا إلى سببين اثنين خليق بنا أن نتفهمهما حق الفهم أول كل شيء .

فيجب ألا يغرب عنا أبداً أن الدين هو الأصل في قيام المجتمع الأمريكي الإنجليزي . فالدين متصل في الولايات المتحدة بعادات الأمة، وبجميع عواطف الوطنية مما يجعل له قوة خاصة . ولا بأس في أن نضيف إلى هذا السبب الوجه سبباً آخر لا يقل عنه وجاهة . فقد وضع الدين في أمريكا حدوداً لنفسه بنفسه، وظلت المؤسسات الدينية منفصلة تمام الانفصال عن المؤسسات السياسية، مما مكن للقوانين السابقة أن تتغير في سهولة ويسر، مع بقاء المعتقدات القديمة ثابتة لا تتزعزع . فلا غرو أن احفظ الدين المسيحي بسيطرة عظيمة على عقول الشعب في أمريكا . وإني لأشير هنا بوجه خاص إلى أن سيطرة هذا الدين لم تكن مجرد سيطرة مذهب من المذاهب الفلسفية سلم به الناس وأخذوا به بعد بحث وتمحيص، بل كانت طريقة دين آمن به الناس من غير بحث أو نقاش . فلا يخفى أن الطوائف المسيحية في أمريكا كثيرة ومنوعة كل التنوع، وتتعدل وتتغير باستمرار، على حين أن المسيحية نفسها حقيقة مقررة لا تقاوم، فلا يعمد إلى مهاجمتها أحد، ولا يتصدى للدفاع عنها أحد . فيعد أن سلم الأمريكيون بمبادئ الدين المسيحي الأساسية من غير بحث، اضطروا إلى أن يقبلوا كذلك، وبالطريقة عينها، عدداً كبيراً من المبادئ الأخلاقية، نشأت فيه ومتصلة به . ومن ثم كان نشاط الفرد في التحليل محصوراً في حدود ضيقة، وصارت طائفة كبيرة من أهم آراء البشر بعيدة عن نفوذه .

هذا، والسبب الثاني الذي أشرت إليه، هو أن أحوال الأمريكيين الاجتماعية ديمقراطية، وكذلك دستورهم، ولكن لم تحدث بينهم أية ثورة ديمقراطية؛ فقد وفدوا على البلاد التي يعيشون فيها الآن في الحالة التي نجدهم عليها في الوقت الحاضر تقريباً. ولهذا أهميته التي لا يمكن تجاهلها . فمن المعلوم أنه لا تحدث ثورات من غير أن نهز معتقدات الناس القائلين والنصفيين

السلطة، وتلقى الشكوك والغموض على الآراء المأثورة التي درج الناس على الأخذ بها . فكل ثورة تؤدي إلى تحلل الناس من القيود، وتركهم وشأنهم في أمور سلوكهم، وتفسح لعقل كل واحد منهم مكاناً واسعاً يكاد لا يحُد . فإذا ما حدث وأقيمت المساواة بين الناس في أحوالهم الاجتماعية، عقب صراع قام بين مختلف الطبقات التي كان يتكون منها المجتمع القديم، استولى الحسد والكراهية وعدم مراعاة مصالح الغير، وعدم التسامح، على نفوس الناس، وغلبت عليهم الكبرياء، والإسراف في الثقة بالنفس، وظلت تسيطر على قلوبهم فترة من الزمن . فهذا، وبغض النظر عن المساواة نفسها، يعمل بقوة على إيجاد التفرقة بين الناس، ويؤدي بهم إلى إساءة الظنون برأى بعضهم البعض . ويدفعهم إلى البحث عن نور الحقيقة في أنفسهم وحدها دون أى موضع آخر . وعندما يصبح كل امرئ لا يهتدى برأى غير رأيه، ويفخر بأنه إنما يكون آراءه بنفسه في كل ما يعرض له من موضوعات، فعندئذ لا تعود الأفكار هي التي تربط الناس بعضهم ببعض، بل المصالح الشخصية؛ ويبدو الأمر كأن أفكار البشر تحولت إلى نوع من الغبار العقلي تبعثرت ذراته في كل اتجاه، فلا هي تستطيع أن تتجمع ولا أن تتناسك .

ومن ثم ليس ذلك الاستقلال العقلي الذي تفرض المساواة وجوده، استقلالاً عظيماً أبداً، ولا هو يبدو مفرطاً إلا حيناً تأخذ المساواة في إرساء قواعدها، وفي أثناء ذلك الجهد العظيم الشاق الذي لا بد منه لإقامتها . فيجدر بنا إذن أن نميز بين هذا النوع من الحرية الفكرية الذي قد يترتب على قيام المساواة، وبين الفوضى التي تستحدثها الثورة . فكل من هذين الأمرين يجب أن يدرس على حدة، حتى لا تداعبنا الآمال المفرطة ولا تفرعنا المخاوف المسرفة بشأن المستقبل<sup>(١)</sup> ..

وفي رأبي أن من سيعيشون في ظل المجتمعات الجديدة، سيكتزون من الاعتماد على أنفسهم في حكمهم على الأشياء، ولكن لا يخطر ببالى أبداً أنهم سيستون استخدام هذه الحريات إساءات كثيرة . ويرجع ذلك إلى سبب ينطبق بوجه عام على البلاد الديمقراطية أكثر مما ينطبق على غيرها، ولا بد له من أن يقيد حرية الفرد في التفكير واستقلاله به آخر الأمر، ويقصرها على دائرة ثابتة الحدود . وهي دائرة قد تكون ضيقة في بعض الأحيان . هذا وسأتناول هذا السبب بالشرح والتفصيل في الفصل التالي .

(١) لاشك أن كانت أحوال فرنسا وتند في فك المؤلف وهو يكتب هذه السطور .

## الفصل الثاني

### مصدر معتقدات الشعوب الديمقراطية الرئيسي

يختلف انتشار المعتقدات «الحمية» سعة وضيماً باختلاف العصور؛ وتنشأ هذه المعتقدات بطرق شتى. ومع أن أشكالها قد تتغير. وأغراضها قد تتبدل، فإنها لن تزول بحال من الأحوال؛ وبعبارة أخرى، لن يمتنع الناس من تقبل بعض آراء من غيرهم دون جدل أو نقاش، اعتماداً على ثقتهم بمن يأخذونها عنهم. فلو اضطلع كل إنسان بتكوين آرائه بنفسه، وبأن يبحث عن الحقيقة وحده. بطرق جديدة. يشقها لنفسه. لترتب على ذلك أن لا يتحد أى عدد كبير من الناس. ويتفقوا على الاعتقاد بمبدأ واحد مشترك بينهم.

ولا يخفى أن لا يتسنى لأى مجتمع أن يزدهر من غير أن يقوم فيه اعتقاد مشترك من هذا القبيل؛ بل إن شئت قلت، إنه لا يتسنى لأى مجتمع أن يقوم بدونَه. فمن غير آراء مشتركة تربط الناس بعضهم ببعض. لا يكون ثمَّ عمل مشترك؛ ومن غير عمل مشترك سيظل الناس موجودين حقاً، ولكن دون أن تتكون منهم هيئة. فكى يوجد مجتمع ما، وبالأحرى كى يزدهر مجتمع ما، يجب أن تكون عقول المواطنين قد تجمعت وتماست بآراء معية غالبية عليهم، ولا يكون هذا إلا إذا استقى كل واحد آراءه أحياناً من المنبع المشترك الذى يستقى منه سواه. ورضى أن يتقبل بعض المسائل المتعلقة بالاعتقاد بالشكل الذى سبق أن تكونت به من قبل.

فلو أنا نظرنا إلى الإنسان من حيث هو فرد منعزل عن غيره من الناس، لوجدنا أن المعتقدات «الحمية» ليست أقل لزوماً له، كى يعيش وحده منفرداً بنفسه، عن لزومها له كى يتعاون مع أمثاله. فلو كان الإنسان مضطراً إلى أن يبرهن لنفسه على جميع الحقائق التى يستخدمها كل يوم. لما انتهى من هذا العمل أبداً، بل إنه ليستند طاقته في براهين تمهيدية، من غير أن يتقدم إلى ما بعدها خطوة واحدة. ولما كان قصر عمره لا يتيح له الوقت الكافى، ولا يسر له عقله المحدود القدرة اللازمة للسير في هذه الطريق، فقد أصبح مضطراً إلى تقبل حقائق كثيرة، وآراء عدة. لم يكن عنده الوقت الكافى، ولا القدرة اللازمة لفحصها وتحقيقها بنفسه، ولكن رجالاً أسمى منه قدرة قد توصلوا إليها، أو أن الجماعة قد اختارتها واعتقتها. فاستناداً إلى هذا الأساس الأولى يستطيع المرء أن يقيم صرح

أفكاره بنفسه . فهو لا يسلك هذا المسلك طواعية منه واختياراً ، بل يكره عليه إكراهاً بحسب ما يقتضيه قانون الضرورة الصارم . فليس في العالم فيلسوف واحد ، مهما بلغت عظمته ، ليضطر إلى تقبل آلاف من الأشياء على أنها صحيحة اعتماداً منه على ثقته بمن توصلوا إليها ، بل إنه لمضطر كذلك إلى تقبل حقائق أكثر عدداً مما يستطيع أن يدلل هو على صحته بنفسه .

وليس هذا ضرورياً فحسب ، بل هو أمر مرغوب فيه كذلك . فمن شاء أن يفحص عن كل شيء بنفسه ، لم يستطع أن يخصص لكل شيء غير وقت قصير ، وعناية ضئيلة . فالمهمة التي اضطلع بها تجعل عقله في قلق دائم ، يمنعه من أن يتعمق أية حقيقة ، أو يستمسك كل الاستمساك بعقيدة ما . وبذلك يصبح عقله مستقلاً ، وضعيفاً في الوقت نفسه ، لاحول له ولا قوة . ومن ثم تحتم عليه أن يختار من بين مختلف المعتقدات البشرية موضوعات ليؤمن بها هو ، كما عليه أن يختار كثيراً من الآراء فيصدقها من غير جدل أو نقاش ، كى يتيسر له أن يحسن البحث والتحقيق في ذلك العدد القليل من الشئون التي يخصصها بالدرس والتقيب . حقاً إن من يتقبل رأياً ما اعتماداً على الثقة بقائله إنما يجعل من عقله هو عبداً رقيقاً ، ولكنه استرقاق محمود يمكن له من أن يستخدم الحرية خير استخدام .

فهما كان الأمر ، فلا بد إذاً من وجود مجال لمبدأ « السلطة » في موضع ما ، في عالمي الأخلاق والعقل . وقد يختلف موضعه هذا كل الاختلاف ، ولكن لامناص من وجوده في مكان ما . فقد يزداد استقلال عقل الأفراد أو يقل ، ولكنه لا يمكن أن يكون استقلالاً مطلقاً لا يحده حد . فليست المسألة إذن مسألة معرفة « سلطة » عقلية في عصر من عصور الديمقراطية ، ولكنها معرفة موضوع هذه السلطة والميعار الذي تقدر به .

لقد بينا في الفصل السابق ، كيف أن تساوى الناس في الأحوال الاجتماعية يدفعهم إلى الاستمساك بنوع من عدم التصديق لكل ما هو فوق الطبيعة ، وأن يتخذوا لهم رأياً سامياً بشأن ما للعقل البشرى من قدرة ، وهو رأي كثيراً ما يكون مسرفاً . فليس من السهل حمل الناس الذين يعيشون في عصر من عصور المساواة الاجتماعية ، على أن يضعوا هذه السلطة الفعلية ، التي يذعنون لها ، فوق البشر أو دونهم . فهم يبحثون عادة عن مصادر الحق في أنفسهم ، أو في أمثالهم من البشر . وفي هذا ما يكفي للتدليل على أنه لا يتسنى ، لأى دين جديد أن يقوم في مثل هذه الأوقات . وكل تدبير يتخذ لذلك يعد فسوقاً ، إن لم يعد سخيفاً وبعيداً عن المعقول . ولا بأس من أن نتكهن بأن الشعب الديمقراطي لا يصدق الرسائل الإلهية بسهولة . وقد يسخر من الأنبياء الجدد ، ويسعى وراء استكشاف محك معتقداتهم ، في حدود بنى جنسهم هم لا خارجها .

فإن كانت طبقات المجتمع غير متساوية ، وكان الناس يتعاونون بعضهم مع بعض في أحوالهم الاجتماعية ، فالمجتمع لا يخلو من أفراد يمتازون بذكاء فائق وبعلم واسع واستنارة ،

على حين تكون الكثرة الكاثرة غارقة في الجهالة وآخذة بصروب التعصب . فالناس الذين يعيشون في هذه الأوقات الأرستقراطية مدفوعين ، بطبيعة الحال ، إلى أن يشكلوا آراءهم بحسب معيار شخصي متفوق بارز ، أو يشكلوها بمعيار طائفة متفوقة من الناس ، على الرغم من أنهم يكرهون أن يعترفوا بعصمة الشعب في جملة .

ويحدث عكس هذا في العصور التي تسودها المساواة . فكلما اقترب الناس من التساوي في الأحوال الاجتماعية ، قل استعداد كل واحد منهم لأن يثق بشخص معين ، أو بفئة معينة من الناس ثقة عمياء ، أما استعداده للاعتقاد بسداد ما يراه الجمهور ، فيزداد . وعندئذ يصبح الرأي العام في ذلك العصر سيد العالم ، وهذا هو الرأي الذي أخذ يسود العالم شيئاً فشيئاً .

فليس الرأي العام بالمرشد الوحيد الذي يستهدى به الفرد في أحكامه على الناس والأشياء في الشعب الديمقراطي فحسب ، بل إن سلطان الرأي العام في مثل هذا الشعب ليقف فوق سلطانه في أي شعب آخر ، فوقاً لآحد له . فالناس في عصور المساواة لا يثقون بعضهم ببعض لما بينهم من تشابه عام ، ولكن هذا التشابه العام نفسه يجعل لهم ثقة لا حد لها أو تكاد تكون كذلك ، برأي الجماعة وحكمها ؛ فلما كانوا مزدوين جميعاً بوسائل متساوية للحكم على الأشياء فمن المحتمل كل الاحتمال أن تكون الحقيقة في جانب الرأي الذي يراه أكبر عدد من الناس .

فإن قارن أحد من سكان البلاد الديمقراطية نفسه بكل فرد من جميع الأفراد الذين حوله ، شعر في فخر واعتزاز ، بأنه ند مساو لأي واحد منهم . أما عندما ينظر إلى بني وطنه في جملتهم ، ويوازن نفسه بهذه الهيئة الضخمة من الناس غمره إحساس طاغ بضآلته وضعفه . فالمساواة ذاتها التي جعلته مستقلاً عن كل فرد من بني وطنه تعرضه هو نفسه ، من حيث هو فرد ، غير محمي ، لتأثير العدد الأكبر . ومن ثم كان الرأي العام في الشعب الديمقراطي قوة عجيبة لا تتصورها الأمم الأرستقراطية - وذلك أنها لاتقع الناس بالانضمام إلى آرائها ، ولكنها تفرض هذه الآراء عليهم فرضاً ، وتجعلها تغلغل في تفكير كل شخص عن طريق جعل عقل المجموع الهائل يضغط على عقل الفرد الضعيف .

وتقوم العالية في الولايات المتحدة بتزويد الناس بطائفة معدة جاهزة من الآراء يستخدمها المواطنون مباشرة ، وبذلك يكونون قد أعفوا من ضرورة القيام بتكوين آراء بأنفسهم . فكل إنسان هناك يعتقد عدداً كبيراً من النظريات في الفلسفة وفي الأخلاق والسياسة ، من غير أن يجشم نفسه مثونة بحثها وتحقيقتها ، ثقة منه بالجماعة . وإن نحن أمعنا النظر فيها بعناية ودقة لأدركنا أن الديانة نفسها لتسيطر في تلك البلاد ، من حيث هي رأي تقليدي مأثور ، أقل مما تسيطر عليها بوصفها مذهباً منزلاً .

وضع الأمريكيون قوانين السياسية على نحو يسر للأغلبية أن تحكم الجماعة حكماً

مطلقاً. فهذه القوانين تزيد بطبيعة الأحوال القوة التي تمارسها تلك الأغلبية على عقول الناس زيادة محسوسة. فمن عادة الإنسان أن يرى في شخص من يستبد به ويظلمه، حكمة سياسية تفوق كل حكمة. ولا شك في أن طغيان الأغلبية السياسي هذا في الولايات المتحدة يزيد ذلك النفوذ، الذي كان يتسنى للرأى العام أن يحصل عليه بدونها، على عقل كل فرد من أفراد الجماعة. ومع ذلك فهذا النفوذ لا يقوم على طغيان الأغلبية؛ فينبغى أن نبحث عنه إذن في مبدأ المساواة نفسه لا في تلك المؤسسات الشعبية التي قد يقيمها الناس الذين يعيشون في تلك الحال. فيسطرة الأغلبية الفكرية، وقد تكون مطلقة وطاغية في شعب ديمقراطى يحكمه ملك، أقل منها في نطاق الديمقراطية المحضة؛ ولكنها مع ذلك تظل مطلقة دائماً ومتطرفة كل التطرف، وأيا كانت القوانين السياسية التي يحكم بها الناس في عصور المساواة، فلا ضير من أن نتكهن بأن الثقة بالرأى العام قد تصبح في نظرهم نوعاً من الدين، الأغلبية نبيّة المرسل.

وهكذا تكون السلطة العقلية مختلفة، ولكنها لا تنقص. ومع أنه لا يخطر ببال أنها قد تزول، فإنى أتنبأ بأنها ستكتسب مزيداً من الطغيان أكثر مما يجب لها، وتختصر مجال الأفراد في حدود ضيقة بصورة لا تتناسب مع عظمة الجنس البشرى ولا مع سعادته. وإنى لأرى في مبدأ المساواة نزعتين واضحتين: إحداهما تؤدي بعقل الإنسان إلى أفكار لم تختبر صحتها بعد، والأخرى تمنعه من التفكير على الإطلاق. وإنى لأتصور، كيف تستطيع الديمقراطية أن تقضى، بتأثير قوانين معينة، على تلك الحرية العقلية التي تكون الحالة الاجتماعية مواتية لها، فبعد أن يحطم العقل البشرى جميع القيود التي فرضتها عليه الجماعات أو الأفراد، يصبح مقيداً كل التقييد بالإرادة العامة للأغلبية.

فلو أحلت الشعوب الديمقراطية قوة الأغلبية المطلقة محل جميع تلك القوى المختلفة التي عطلت نشاط العقول الفردية أو أخرته، لظل البلاء على ما هو، وإن كان قد غير من طابعه، ولما وجد الناس الوسائل التي تمكنهم من أن يحيا الحياة المستقلة، وإنما يكونون قد استكشفوا ملامح جديدة للعبودية ليس إلا (وهو أمر ليس بالهين). وأعود وأكرر، ومهما أكثر من التكرار، فإننى لأعد نفسى مسرفاً فيه، أن هنا مادة للتفكير العميق لمن يقدسون حرية التفكير، ولا يكرهون المستبد فحسب، بل يكرهون الاستبداد نفسه معه. أما أنا فكلما أحسست بثقل يد القوة ضاغطة على رأسى، لم أحفل بأن أعرف هذا الذى أرهقنى ظمناً، ولا أنا أشعر بجيل إلى إدخال رقبتي في النير من أجل أن التى تقدمه إلى سواعد مليون من الرجال.

## الفصل الثالث

# الأمريكيون أميل إلى الأخذ بالمعاني العامة والمدركات الكلية، وأكثر تذوقاً لها من أجدادهم الإنجليز

لا ينظر الله إلى البشر كلهم جملة فحسب، ولكنه بلمحة واحدة يشملهم جملة، وفردى، كلاً على حدة، ويعلم ما في كل فرد من وجوه الشبه التي تجعله واحداً من بني الإنسان، كما يعلم ما فيه من وجوه الخلاف التي تميزه عن غيره من الناس. فهو ليس بحاجة إلى معان عامة إذن، وبعبارة أخرى ليس بحاجة إلى جمع عدد كبير من الأشياء المتشابهة تحت عنوان واحد لزيادة تيسير عملية التفكير مثل بني الإنسان<sup>(١)</sup>.

أما الإنسان فأمره آخر. فإذا ما حاول العقل البشري فحص جزئى من الجزئيات التي أمامه على حدة ليصدر فيه حكماً يصدق على سائرهم، فسرعان ما تضللّه جسامه التفاصيل فلا يستطيع أن يدرك شيئاً ما، وعندئذ يلجأ إلى وسيلة قاصرة، وإن لم يكن له مندوحة عنها، لأنها تساعده على ضعفه، وتكشف له في الوقت نفسه عن هذا الضعف. فبعد أن يدرس الإنسان عدداً معيناً من الأشياء دراسة سطحية، ويلخظ ما بينها من وجوه الشبه، يطلق عليها اسماً ينتظمها جميعاً ويميزها عن غيرها، ثم ينطلق بعد ذلك قدماً ليدرس غيرها.

فليست المعاني العامة أو المدركات الكلية دليلاً على قوة العقل البشري وإنما هي شاهد على ما به من قصور وقلة كفاية، فليس في الطبيعة كائنات متشابهة تمام الشبه، ولا حقائق متماثلة تمام التماثل، كما لا توجد قواعد تصدق على أشياء متعددة بطريقة واحدة ومن غير تمييز. فأكبر ميزة للمدركات الكلية هذه أنها تمكن للعقل من أن يصدر حكماً سريعاً على عدد كبير من الأشياء دفعة واحدة. ومع ذلك، فالفكرة التي تحملها إلينا هذه المدركات، ناقصة دائماً، ذلك إلى أن هذه المدركات العامة تجعل العقل يفقد من الدقة بقدر ما يربحه من الشمول.

(١) هذه مقدمة لاهوتية لاندرى معنى لاستهلال هذا الفصل بها اللهم إلا نعمة المؤلف الدينية العامة.

وكلما تقدمت المجتمعات ألت بحقائق جديدة، وحصلت كل يوم، وبشكل يكاد يكون لاشعورياً، على حقائق جزئية جديدة. فكلما كثر إلمام المرء بحقائق من هذا النوع ازداد طبعاً عدد ما يتصوره من المعاني الكلية العامة؛ فليس من الميسور له أن يدرك طائفة من الحقائق الخاصة، كلاً على حدة، من غير أن يدرك ما بينها من صلوات مشتركة تربطها بعضها ببعض. فالفكرة التي تكونت من عدة جزئيات تؤدي إلى فكرة النوع، وتؤدي الفكرة التي تكونت من عدة أنواع، إلى فكرة الجنس. ومن هذا يتبين لنا أن عادة تكوين المدركات الكلية، أو المعاني العامة، والميل إليها، تكون على أشدها عند الشعوب ذات الحضارة التليدة والمعارف الواسعة المتعددة.

ولكن ثمة دواع أخرى تحفز الناس إلى التعميم أو تمنعهم منه.

فالأمريكيون يقبلون على استخدام المعاني العامة تلك أكثر مما يقبل عليها الانجليز، ويجدون متعة في استخدامها أكثر منهم. وقد يبدو هذا غريباً كل الغرابة لأول وهلة، إذا مارعينا أن أصل الأمتين واحد، وأنهما عاشتا قروناً طوالاً في ظل قوانين واحدة، وما زالتا دائبتين على تبادل الآراء والعادات الأخلاقية وآداب السلوك. هذا وتزداد المقابلة بينهما بعداً وحدة إذا ما ركزنا نظرنا على فرنسا وقارنا الأمتين اللتين تعدان أكثر أُم الأرض ثقافة واستنارة، بعضهما ببعض؛ فعندئذ يبدو لنا أن الإنجليز لا يستطيعون أن ينتزعوا عقولهم من الاشتغال بالجزئيات، والانتقال بها من المسبات إلى أسبابها إلا بكل مشقة وضجر. فهم لا يتجهون إلى التعميم إلا على كره منهم. أما الفرنسيون فأمرهم على النقيض من ذلك، إذ يبدو أن الميل إلى استخدام المعاني العامة قد استبد بهم وبلغ درجة تحم عليهم إرضاءه في كل حال. ففي الصباح، عندما أستيقظ من نومى أجد أن قانوناً أزيلياً لم أكن قد سمعت به من قبل، قد استكشف توأ، وليس ثمة كويكب فرنسى لا يحاول أن يستكشف حقائق تصدق على «مملكة» كبرى. ولا هو يرتاح إن لم ينجح في حشر الجنس البشرى كله في نطاق مقالة يدبجها بقلمه.

فمثل هذا الفارق الكبير بين أمتين مستتيرتين كل الاستنارة، ليعث في نفسى الدهشة. فإن عدت ووجهت أفكارى إلى إنجلترا لأستقصى ما جرى من أحداث في الخمسين سنة الأخيرة، خيل إلى أنى أستطيع أن أوكد أن الميل إلى المعاني العامة آخذ في الازدياد فيها كلما ضعف أثر دستورها العتيق.

فليست الاستنارة وحدها بكافية إذن لتفسير السبب الذى أوحى إلى العقل البشرى باستخدام المعاني العامة أو الامتناع عنه.

فإذا ما تفاوتت أحوال الناس تفاوتاً كبيراً ودائماً، ازدادت الفروق بين الأفراد شيئاً فشيئاً، حتى نستطيع أن نقول إن كل طبقة منهم لتتخذ شكل جنس متمايز عن غيره. فلا يكون أبداً أمام أنظارنا في اللحظة الواحدة سوى طبقة واحدة من هذه الطبقات، وإن نحن

أغفلنا رؤية هذه الصلة العامة التي تربطهم وتنظمهم جميعاً في سلك الجنس البشرى لما كنا نصادف أبداً سوى أفراد من بنى الإنسان، لا الإنسان نفسه بمعناه العام، ومن حيث هو جنس. فالناس الذين يعيشون في مثل هذه الحالة الأرستقراطية لا يتصورون أبداً معاني عامة خاصة بهم أنفسهم. وفي هذا ما يكفي لتعويدهم سوء الظن بأمثال هذه المعاني العامة، ويث في نفوسهم كراهية عميقة لها تكاد تكون فطرية.

وعلى العكس من ذلك أهل البلاد الديمقراطية. فكل فرد منهم يشاهد في كل مكان حوله، رجالاً لا يختلفون بعضهم عن بعض، إلا اختلافاً طفيفاً، فلا يستطيع أن يحول عقله إلى أى جزء واحد معين من البشر دون أن يوسع أفكاره ويمدها حتى تشملهم جميعاً. فيرى أن كل الحقائق التي تصدق على نفسه تصدق كذلك على مواطنيه، وعلى بنى جنسه كافة. وبعد أن يحصل على عادة تعميم أفكاره هذه في الدراسات التي تهمة وتشغل باله أكثر من غيرها، تنتقل هذه العادة نفسها إلى سائر ما يشتغل به من أمور. وهكذا نجد الميل إلى استكشاف المعاني العامة في كل شيء، ينتظم عدداً كبيراً من الأشياء في صيغة واحدة بعينها أو في قانون واحد، ويفسر طائفة كبيرة من الحقائق بسبب واحد؛ وسرعان ما يصبح هذا الميل راسخاً في العقل، أو شهوة في النفس عمياء طاغية.

وليس ثم شيء يوضح صدق هذه القضية مثل ما توصلنا إليها آراء القدامى عن الرق في عصرهم. فأوسع الناس عقلاً وأعمقهم فكراً في روما وفي اليونان لم يستطيعوا أبداً أن يتوصلوا إلى فكرة تشابه بنى الإنسان، وحق كل منهم الفطري في الحرية، وهي فكرة عامة كل العموم وبسيطة كل البساطة. فقد حاول هؤلاء المفكرون التذليل على أن الرق أمر طبيعي، وأنه باق لا يزول، بل إن كل شيء يدل على أن من كانوا من هؤلاء المفكرين رقيقاً وعبداً ثم تحرروا (وكثيرون منهم خلفوا لنا مصنفاً رائعة من المرتبة الأولى) لم يكونوا ينظرون إلى الرق أبداً إلا على هذا الضوء.

فقد كان كبار الكتاب جميعاً في العصور القديمة من الأرستقراطيين بمهنتهم، أو رأوا على الأقل هذه الأرستقراطية تنشأ أمامهم لا ينازع في أمرها اثنان. ولكن بعد أن اتسعت عقول هؤلاء الكتاب واتجهت اتجاهات عدة، حيل بينها وبين التقدم في هذا الاتجاه المعين، فكان لا بد من مجيء المسيح برسائله ليعلم الناس كافة أن البشر كلهم سواء ومتشابهون.

أما في عصور المساواة، فالناس مستقلون بعضهم عن بعض، ومنعزلون وضعاف؛ فحركات الجماهير لا تكون في تلك العصور موجهة دائماً بإرادة الأفراد أياً كانوا، فبدو البشرية وكأنها تتقدم من تلقاء نفسها على الدوام. وكى يفسر الإنسان ما يجري حوله في العالم اضطر إلى البحث عن بعض الأسباب الكبرى التي تؤثر في جميع السكان بصورة واحدة، وتحملهم جميعاً طواعية واختياراً على اختيار سلوك طريق واحد. وهذا يؤدي بدوره، بالعقل البشرى إلى العناية بإدراك معان عامة، ويولد فيه الميل إلى الأخذ بها.

سبق أن أوضحت كيف تؤدي المساواة في الأحوال الاجتماعية بكل إنسان إلى البحث عن الحقيقة بنفسه. ولا يخفى أن كل طريقة من هذا القبيل لابد أن تؤدي بشكل غير محسوس إلى توليد ميل في نفوس الناس إلى المعاني العامة. فإن أنا نبذت التقاليد المرعية فيما يتعلق بمراتب الناس ومقاماتهم ومهنتهم ونسبهم، وتخلصت مما للقدوة من سلطان، كى أبحث بنفسى معتمداً على جهدى العقلى وحده - عن الطريق الذى ينبغى لى أن أسلكه، وجدتنى ميالاً إلى استمداد الخوافز التى تحرك تفكيرى من الطبيعة البشرية ذاتها. وهذا يفضى لى بالضرورة - وعلى غير تفتن منى تقريباً - إلى اعتناق عدد كبير من المعاني العامة المفرقة فى العموم.

فكل ما ذكرته هنا، يفسر لنا السبب فى أن الإنجليز يظهرون ميلاً إلى تعميم المعاني وقدرة عليه أقل كثيراً مما تظهر سلالاتهم من الأمريكيين. فهذا الميل وتلك القدرة هما أقل مما عند جيرانهم الفرنسيين، ويبين لنا كذلك السبب فى أن الإنجليز فى الوقت الحاضر يظهرون اهتماماً بهما أكثر مما كان يظهر أجدادهم.

فالإنجليز، أمة مستتيرة تماماً ومفرقة فى الأرستقراطية؛ فأحوالهم المستتيرة تدفعهم إلى التعميم، على حين تقصرهم عاداتهم الأرستقراطية على العناية بما هو جزئى وخاص، ومن ثم ظهرت فيهم تلك الفلسفة الجريئة الهيابة معاً، والضيقة والواسعة فى وقت واحد. وهى تلك الفلسفة التى ظلت تسود إنجلترا إلى يومنا هذا، ولا تزال تعوق تفكير الكثير من عقول الناس فيها أو تجعلها خاملة راكدة.

وتم أسباب أخرى مستقلة عن تلك التى سبق أن ذكرتها، وإن لم تكن تضاهيها من حيث الوضوح، فلا تقل عنها من حيث التأثير. وهى تحدث فى كل أمة ديمقراطية ميلاً إلى العناية بالمعاني العامة هذه، وكثيراً ما يصبح هذا الميل شهوة عارمة. ولكن يجب أن نفرق بين بعض هذه المعاني العامة (أو المدركات الكلية) وبعض؛ فمنها ما يأتى نتيجة عمل عقلى واع وبطء وتفصيل دقيق. فهذه المعاني العامة تعاون على توسيع نطاق المعارف البشرية؛ وتم غيرها تسنح للمرء بمجهود عقلى سريع ولا تؤدي إلا إلى أفكار ضحلة بعيدة عن اليقين.

فالناس الذين يعيشون فى العصور التى تسودها المساواة يتميزون بكثير من الفضول وحب الاستطلاع، وبقليل من أوقات الفراغ؛ فحياتهم عملية معقدة ومضطربة، ونشطة كل النشاط حتى أنها لا تبقى لهم وقتاً للتفكير. فأمثال هؤلاء الناس يميلون إلى الاهتمام بالمعاني العامة لأنها توفر عليهم متونة دراسة الحالات الجزئية، لأن هذه المعاني تشمل الكثير فى حيز ضئيل، وتغل فى وقت قصير محصولاً وفيراً. فإن خيل إليهم بعد بحث قليل لا تعمق فيه أنهم أدركوا علامة مشتركة بين أشياء معينة، لم يجشموا أنفسهم متونة الاستمرار فى البحث، فلا يسرون فيه أبعد مما ساروا. ومن غير أن يقوموا ببحوث تفصيلية عن مدى اتفاق هذه الأشياء، أو اختلافها بعضها عن بعض، فإنهم يسارعون إلى وضعها تحت عنوان واحد، كى ينتقلوا إلى موضوع آخر.

فمن الخصائص التي يتميز بها كل عهد ديمقراطي، أن يميل الناس فيه إلى إحراز النجاح من أهون سبيل، والاستمتاع بالمتع العاجلة. ويتجلى هذا في ميدان الأمور العقلية، وفي سواها. فمعظم الذين يعيشون في عصر من عصور المساواة، تمتلئ نفوسهم بطموح يقظ متحفز، وخامل معاً، في الوقت نفسه. فهم يرغبون أن يحصلوا فوراً على نجاح عظيم، ومع ذلك يتحاشون بذل أى مجهود كبير لتحقيق ذلك النجاح. فهاتان النزعتان المتضادتان تدفعان الناس مباشرة إلى السعي وراء المعاني العامة، فيخادعون بها أنفسهم بأنهم يستطيعون أن يضعوا خططاً واسعة لا تكلف بذل الكثير من الجهود، ويسترعوا أنظار الجماهير دون أن يتجشموا في ذلك أية مشقة تذكر.

ولست أدري إن كانوا على خطأ في تفكيرهم هذا، لأن قراءهم مثلهم يكرهون الإمعان في بحث أى شيء وتعمقه. فلا يعدو ما يتطلبون الحصول عليه من وراء القراءة والاطلاع - لا يعدو المتعة السهلة، واكساب المعلومات من غير كد.

فإذا كانت الأمم الأرستقراطية لا تستخدم المعاني العامة استخداماً كافياً، وأنها كثيراً ما تناو لها بشيء من الاحتقار الأخرق، فالأمم الديمقراطية، من جهة أخرى، تبتدى دائماً استعداداً للإسراف في استخدام هذه المعاني العامة وتحمس لها تحمساً أقرب إلى الخرق منه إلى الحكمة.

## الفصل الرابع

# الأمريكيون لا يقبلون على المعاني العامة في الشؤون السياسية إقبال الفرنسيين عليها

أشرنا من قبل أن الأمريكيين لا يميلون إلى الاهتمام بالمعاني العامة ميل الفرنسيين لها . فهذا القول يصدق على السياسة بصورة خاصة .

فمع أن الأمريكيين يدمجون في تشريعاتهم أفكاراً عامة أكثر مما يفعل الانجليز ، ويجاهدون أكثر منهم في أن يكيّفوا ممارسة الأعمال البشرية بحسب النظريات ، لم يحدث في الولايات المتحدة أن أظهرت هيئات سياسية محبة عظيمة للمعاني العامة بقدر ما أظهرته الجمعية التأسيسية ، أو أظهره الكونغرسون Convention في فرنسا<sup>(١)</sup> ، فلم يحدث أن عنى الأمريكيون بمدرجات عامة من هذا القبيل ، بمثل تلك الهمة العظيمة التي أبدأها فيها الشعب الفرنسي في القرن الثامن عشر ، أو أظهروا نفس تلك الثقة العمياء بقيمة أية نظرية وبصدقها المطلق .

ويرجع ما بين الأمريكيين والفرنسيين من فرق هنا إلى عدة أسباب ، ولكنه يرجع أساساً إلى أن الأمريكيين شعب ديمقراطي اعتادوا أن يوجهوا شئونهم العامة بأنفسهم ؛ والفرنسيون شعب ديمقراطي كذلك ولكنهم ظلوا رديحاً طويلاً من الزمن ، وهم لا يستطيعون غير التفكير في خير طريقة لإدارة شئونهم العامة . فأحوال الفرنسيين الاجتماعية هيأت لهم أن يتصوروا معاني عامة كل العموم في شئون الحكم ، على حين كان نظامهم السياسي يمنعهم من أن يصححوا هذه الآراء ويقوموا بما حصلوا عليه من التجارب والخبرة ، ومن أن يدركوا شيئاً فشيئاً ما بها من نقص وقصور . أما في أمريكا فهذان الأمران يوازن أحدهما الآخر ، ويصحح من أخطائه باستمرار .

وقد يبدو لأول وهلة أن هذا يتناقض كل التناقض مع ما قلته من قبل ، وهو أن الأمم الديمقراطية تستمد محبتها للنظريات مما في حياتها من الاستثارة والنشاط ، ولكن مزيداً من الانتباه إلى ما قلت ، يوضح أن ليس فيه أى تناقض .

(١) وبعبارة أخرى ظلت السياسة في فرنسا أمدأ طويلاً موضع مناقشات وبحوث نظرية وتأملات مجردة ، بعيدة عن الناحية العملية لأن الشعب لم يكن يشترك بشيء في حكومة البلاد .

فالناس في البلاد الديمقراطية، يقبلون أيما إقبال على الأخذ بالأفكار العامة، لقلة ما لديهم من الفراغ، ولأن هذه المعاني العامة توفر عليهم مشقة دراسة الجزئيات وفحصها . وهذا حق؛ إلا أنه ينبغي أن يؤخذ على أنه لا يصدق إلا على الأمور الخارجة عن الموضوعات التي يفكرون فيها عادة، أو هو يصدق على الموضوعات الضرورية لهم كل الضرورة.. فالمشتغلون بالتجارة مثلاً يقبلون في يسر ولهفة، وبغير تمعن وتدقيق، جميع المعاني العامة التي تعرض عليهم في الفلسفة والسياسة والعلوم والفنون والإدارة، على حين أنهم لا يقبلون المعاني العامة التي تتصل بشئون التجارة إلا بعد تمعن وبمحت دقيق، ولا هم يقبلونها إلا بكل تحفظ؛ وينطبق هذا نفسه على السياسيين فيما يتعلق بالمعاني العامة التي تمت إلى الشئون السياسية بسبب ما .

ومن ثم ، كان هناك موضوع خاص يحتمل أن ينهك الشعب الديمقراطي فيما فيه من معان عامة انهماكاً خاصاً بشكل أعمى، وإسراف كبير، فخير علاج لشفاء هذا الشعب منه أن نجعل هذا الموضوع جزءاً متصلاً بحرف الناس العملية، فيضطر كل امرئ منهم عندئذ إلى العناية بما فيه من تفاصيل؛ تكشف له عما في النظريات من نقاط الضعف . وكثيراً ما يكون هذا العلاج شاقاً مؤلماً، ولكن تأثيره ناجع يقيناً .

وهكذا نجد المؤسسات الديمقراطية التي تتطلب من كل مواطن أن يضطلع بنصيب عملي في الحكم، تقلل من أثر ذلك الميل المفرط إلى العناية بالنظريات العامة في السياسة، والذي يدفع إليه مبدأ المساواة .

## الفصل الخامس

# استفادة الدين من النزعات الديمقراطية في الولايات المتحدة

أبنت في فصل سابق أن الناس لا يستغنون عن المعتقدات الحتمية، بل إنه لمن المرغوب فيه أن تقوم فيهم مثل هذه المعتقدات. وأزيد هنا على ذلك أن أفضل أنواع تلك المعتقدات «الحتمية» المرغوب فيها، هي في نظري، تلك التي لها صلة بشئون الدين. وهذه نتيجة واضحة حتى وإن كان المرء لا يرغب أن يوجه اهتمامه إلا إلى رعاية المصالح الدنيوية.

فلا يكاد يوجد عمل ما من أعمال البشر، مهما كان ذلك العمل جزئياً في ظاهره، لا يرجع أصلاً إلى ما لدى الناس من فكرة عامة عن الله، وعن صلتهم بخالقهم، وكذلك عن طبيعة الروح، وواجباتهم نحو بنى جنسهم. وليس ثمة ما يمنع هذه الأفكار العامة نفسها أن تكون المصدر المشترك الذى تنبثق منه سائر الأفكار العامة، فلا غرو أن اهتم الناس كل الاهتمام بالحصول على أفكار محددة كل التحديد عن الله، وعن الروح، وعن واجباتهم نحو خالقهم ونحو بنى جنسهم، فالتشكك في هذه النقاط الأولى قد يلقي بكل أفعال الناس إلى المصادفة ويقضى عليهم بالفوضى والضعف، بشكل ما.

هذا هو إذن الموضوع الذى يهم كل واحد منا بالغ الأهمية، أن يكون لديه فيه آراء ثابتة محددة؛ ولكنه أيضاً، مع الأسف، الموضوع الذى يصعب فيه كل الصعوبة على المرء منا، إذا ما ترك وشأنه، أن يقطع فيه برأى على أساس عقله هو وحده. فليس غير العقول المتحررة كل التحرر من جميع المشاغل العادية في هذه الحياة - العقول النافذة الواسعة الحيلة، المدربة على حسن التفكير - تستطيع بما تبذله من جهد وتنفقه من وقت، أن تنفذ إلى أعماق هذه الحقائق التى لا يستغنى عنها أحد. بل إننا لنرى الفلاسفة أنفسهم، قد أحيطوا دائماً بالشكوك، وعدم اليقين من كل جانب؛ وأن النور الطبيعى الذى يستهدون به في كل خطوة يخطونها في طريقهم ليخفت باستمرار حتى يكاد يهددهم بالانطفاء؛ وعلى الرغم من كل ما يبذله هؤلاء الفلاسفة من جهد، فإنهم لم يتوصلوا بعد إلا إلى استكشاف بضعة أفكار متناقضة ظلت عقول الناس تحار فيها آلاف السنين دون أن يصلوا فيها إلى الحقيقة تماماً، بل دون أن يعثروا حتى بشيء

مما فيها من أخطاء. فدراسة مثل هذه الموضوعات شاقّة على الناس ذوى القدرات المتوسطة. وحتى لو كان في مقدور الجماهرة الكبرى من البشر أن يتابعوا مثل هذه الدراسات لما وجدوا الفراغ الذى يتيح لهم الاستمرار فيه .

فالأفكار المحددة التى عن الله، وعن الطبيعة البشرية، لا يستغنى عنها الإنسان في ممارسته شئون حياته اليومية. ومن جهة أخرى، فالقيام بشئون هذه الحياة وانشغال الإنسان بها، يحول بينه وبين الحصول على هذه الأفكار المحددة .

وهذه صعوبة تبدو لي منقطعة النظر. إذ لا يخفى أن من العلوم ما هو نافع للبشر وفي متناولهم الحصول عليه؛ ومنها ما لا تستطيع معالجته إلا القلة من الصفوة. أما الكثرة من الناس فيعجزون عن موائمه، لأنهم لا يحتاجون إلا إلى تطبيقاته البعيدة فحسب، ولكن العلم الذى أتحدث عنه لا غنى لأحد عن ممارسته كل يوم، على الرغم من أن دراسته بعيدة عن متناول الجزء الأكبر من الناس .

فالأفكار العامة عن الله، وعن الطبيعة البشرية هي إذن أولى من غيرها بالأى تعرض لعمليات أحكام الفرد العادية، والتى إذا ما اعترف فيها ببدأ السلطة، تحقق له من وراء ذلك الاعتراف أكبر ربح، وأدنى خسارة .

فأول غرض من أغراض الدين، وهو فائدة من أهم فوائده، أن يزود الناس في جهلهم بكل لكل مسألة من هذه المسائل الأساسية، يكون واضحاً ودقيقاً ومفهوماً وثابتاً كل الثبات .

ولا يخفى أن من الديانات ما هو زائف وسخيف كل السخف، ومع ذلك ففى وسعنا أن نقول: إن كل ديانة حاولت أن تلتزم الدائرة التى رسمتها، توا، من غير أن تتجاوزها ( كما حاولت ديانات كثيرة، بقصد الحد من كل ناحية من نواحي حرية العقل البشرى ) إنما تفرض قيوداً نافعاً على العقل، ويجب أن نسلم بأنها إن لم تستطع أن تخلص الناس وتنجيهم من العذاب فى الآخرة، فإنها تعاون على إسعادهم وعلى عظمتهم فى هذه الدنيا على الأقل .

ويصدق هذا بوجه خاص على الذين يعيشون فى بلاد حرة، فإذا ما تفوضت ديانة شعب ما، استولى التمسك على قوى العقل السامية، وكادت سائر القوى أن تشل، فيعتاد كل امرئ ألا يكون لديه سوى أفكار مضطربة قلقلة متغيرة عن الموضوعات التى تهمة وتمهم سائر الناس كل الاهتمام. فتكون آراؤه فاشلة لا يستطيع الدفاع عنها، ومن ثم سهل عليه تركها والتخلص منها؛ ثم بعد أن يستولى عليه اليأس من أن يتوصل بنفسه إلى حلول للمشكلات المعضلة التى تدور حول مصير الإنسان، إذا به يرضى فى ذلة وهوان بالأى يعود أبداً إلى التفكير فيها .

إن حالة مثل هذه لا بد مؤدية إلى إضعاف الروح والإرادة وإعداد الشعب للعبودية .

فقد يحدث في مثل هذه الحالة ألا يدع الناس حريتهم تفتصب منهم فحسب، بل كثيراً ما يسلّمونها هم بأنفسهم. فإن لم يعد في الدين ولا في السياسة مبدأ من مبادئ «السلطة»، فسرعان ما يستولى الذعر على الناس من مثل هذا الاستقلال المفرط الذى لا يجد فاستمرار الاضطراب في كل ما حولهم يخيفهم ويستفد قواهم. وإذا صار كل أمر من أمور العقل في اضطراب وجهوا اهتمامهم إلى جعل كل ما حولهم من الشؤون المادية، على الأقل، ثابتاً محمداً. وماداموا لا يستطيعون استعادة اعتقادهم القديم، اتخذوا لهم سيداً عليهم.

وإلى لأشك كل الشك في قدرة الإنسان على تحمل الاستقلال التام في شئون الدين، والحرية المطلقة في شئون السياسة معاً؛ وأميل إلى الظن بأن الإنسان إن أعوزه الإيمان، لا بد أن يصبح تابعاً خاضعاً؛ أما إن كان حراً فلا بد له من أن يؤمن.

ومع ذلك فقد تكون فائدة الدين العظمى هذه، لا تزال في الأمم التى تسودها المساواة في الأحوال الاجتماعية، أوضح مما في غيرها، فينبغى أن نعرف أن المساواة التى تؤدى للعالم منافع جسيمة توحى إلى الناس، مع ذلك، كما سترى بعد، بميول ونزعات خطيرة كل الخطر مما قد يعزلم بعضهم عن بعض، ويركز انتباه كل إنسان في ذات نفسه وحدها، ويعرضه للإفراط في حب المتع المادية واللذات الحسية حياً غير عادى.

فأعظم فوائد الدين أنه يوحى إلى الإنسان بمبادئ عكس هذه على خط مستقيم. فليس ثمة دين لا يضع رغائب الإنسان ومشتياته فوق ذخائره هذه الدنيا وأسمى منها. وليس ثمة دين لا يسمو بروح الإنسان إلى ميادين أسمى من عالم الحس، بمراحل عظيمة؛ وما من دين إلا ويفرض على الإنسان بعض واجبات نحو بنى جنسه، وبذلك يعده من حين إلى حين عن التفكير في نفسه؛ وإنك لتجد ذلك في أشد الأديان بطلاناً وأكثرها خطراً.

وعلى ذلك كانت الأمم المتدينة قوية بطبيعتها من حيث النقطة نفسها التى تكون فيها الأمم الديمقراطية ضعيفة، مما يوضح لنا مدى أهمية محافظة الناس على دينهم كلما تساوت أحوالهم الاجتماعية.

ليس من حقى، ولا هو من قصدى، أن أبحث هنا عن الوسائل العلوية التى يث بها الخالق المعتقدات الدينية في نفوس الناس، فأنا إنما أنظر إلى الدين هنا من وجهة النظر الإنسانية ليس إلا. ففرضى البحث عن الوسائل التى تيسر للأديان أن تحافظ على سلطانها في يسر وسهولة في العصور الديمقراطية التى نحن مقبلون عليها.

لقد بينا فيما سبق أن العقل البشرى، في العصور التى تنتشر فيها الثقافة العامة، والمساواة في أحوال الناس الاجتماعية، لا يتقبل الآراء «الخصية» إلا على كره منه، ولا هو يشعر بضرورتها، وميس الحاجة إليها إلا في الشؤون الروحانية. وهذا يدل أولاً، على أن

الديانات في مثل هذه العصور يجب أن تحرص على التزام مجالاتها الخاصة أكثر مما تحرص عليها في الأوقات الأخرى. فإنها، وهي تحاول أن تتجاوزها، وتبسط سلطانها على غير الأمور الدينية، تتعرض لخطر أن لا يؤمن بها أحد مطلقاً. فيبني إذن أن ترسم الدائرة التي تعمل الأديان على حصر العقل البشرى فيها، بعناية وحذر. أما خارج هذه الدائرة فيجب أن يكون العقل البشرى حراً مطلق الحرية لا يهتدى إلا بأحكامه هو.

لم يكن ما نزل على محمد في القرآن مقصوراً على أصول الدين وحدها، بل شمل كذلك قواعد سياسية، وقوانين مدنية وجنائية ونظريات علمية. أما الإنجيل فلم يتحدث إلا عن علاقات الناس العامة بالله وعن علاقاتهم ببعضهم بعض، وفيما عدا ذلك فإنه لم يعلم الناس شيئاً، ولم يفرض عليهم اعتقاداً ما، ففي هذا وحده، دون آلاف أخرى من الأسباب، ما يكفي للدلالة على أن سيادة<sup>(١)</sup> أولى هاتين الديانتين لا يمكن أن تظل طويلاً في عصور الاستارة والديمقراطية، على حين أن الديانة الثانية مقدور لها أن تحتفظ بسيادتها في مثل هذه العصور وفي غيرها.

فإن أنا استمرت في بحث هذا الموضوع نفسه لوجدت أن الأديان، كى تظل تحافظ على نفسها (من الجهة الإنسانية) في العصور الديمقراطية يجب أن تقصر نفسها على دائرة الأمور الدينية وحدها فحسب، ويجب أن تراعى كذلك أن قوتها تتوقف إلى حد كبير على طبيعة المعتقدات التي جاءت بها، كما تتوقف على المظاهر الخارجية التي تتطلبها، وعلى ما تفرضه على الناس من التزامات.

وما ذكرته من قبل بشأن أن المساواة قد تؤدي بالناس إلى الأخذ بمعام عامة مسرفة في العموم، وواسعة كل السعة، يجب أن يفهم أساساً من حيث ما يتصل بالأمور الدينية. فالناس المتساوون في أحوالهم الاجتماعية في هذه الدنيا يدركون في يسر أن الله واحد ويقضى بين الناس بقوانين واحدة، ويمنح كلاً منهم السعادة في الآخرة بشروط واحدة. ففكرة وحدة البشر تؤدي باستمرار إلى الاعتقاد بوحدانية الخالق. أما في المجتمع الذي ينقسم فيه الناس أقساماً متفاوتة كل التفاوت في مراتبها، فإنهم على العكس من ذلك، قد يقيمون لهم آلهة كثيرة بعدد ما في العالم من أمم وطبقات مغلقة، وطوائف، وأسرات، ويرسمون آلافاً من الطرق الخاصة المؤدية إلى الجنة.

ولا نكران أن المسيحية نفسها قد شعرت إلى حد ما بتأثير الأحوال الاجتماعية والسياسية في الآراء الدينية.

(١) ليس من شك في أن الإسلام دين وشريعة. ولا شك كذلك في أنه يدعو إلى البحث والتعلم وطلب العلم من المهد إلى اللحد، والسعي في طلبه هذا ولو في أقاصي الأرض. ذلك إلى أن الناحية الديمقراطية من أبرز نواحيه. فالروح الديمقراطية والعناية بالبحث والتفكير وبالعلم ونشره مكنت للحضارة الإسلامية أن تزدهر وتصبح أزهى حضارات العالم في العصر الوسيط. وكان اتصال أوروبا بهذه الحضارة في ذلك العصر من أهم الحوافز التي عاوت الأوروبيين على الانتقال من العصور الوسطى المظلمة عندهم إلى عصر النهضة والاستارة.

فأول ما ظهرت المسيحية، كانت العناية الإلهية التي قد أعدت هذا العالم لظهورها، فقد قصت بجمع جزء كبير من الجنس البشرى وحشدته تحت صورة قطع ضخم تحت حكم قيصرية الروم. وكان الناس الذين يتكون منهم هذا الحشد يتميزون بعضهم عن بعض بفوارق كثيرة متنوعة، ولكنهم كانوا يشتركون جميعاً في أنهم يطيعون قوانين واحدة، وفي أن كل فرد منهم ضعيف، وتافه إذا ما قيس بالإمبراطور، لدرجة أنهم كانوا يبدون جميعاً متساوين إذا قورنت أحوالهم بأحواله. فحالة الناس الجديدة الخاصة هذه، جعلتهم بالضرورة ميالين إلى تقبل تلك الحقائق العامة التي جاءتهم بها المسيحية، وتفسر لنا تلك السهولة، وتلك السرعة التي نفذت بها هذه الحقائق إلى عقولهم.

وعكس هذه الحالة يتجلى فيما حدث بعد سقوط امبراطورية الرومان. فلما تحطم العالم الروماني وتفرقت أجزاؤه شذر مذر، عادت كل أمة من هذه الأمم إلى فرديتها الأولى، وسرعان ما نشأ في قلب كل أمة سلم للمراتب الاجتماعية متدرج تدرجاً لا آخر له، وبرزت الأجناس المختلفة بصورة أعظم وأشدّ تحديداً، وقسمت الطبقات المغلقة كل أمة شعبياً عدة. ففي وسط هذا الجهود المشترك الذي بدا كأنه سيقسم المجتمع البشرى إلى أكبر عدد يمكن للعقل أن يتصوره، لم تغفل المسيحية عن تلك الأفكار العامة الرئيسية التي جاءت بها إلى هذه الدنيا. ومع ذلك فقد ظهرت وكأنها تتجه بكل ما في وسعها نحو تلك النزعات الجديدة التي أحدثتها تفتت الجنس البشرى هذا، وانقسامه آلاف الأقسام. لقد ظل الناس يعبدون لها واحداً، بارىء الخليقة وحافظها، ولكن كل شعب وكل مدينة، بل وكل إنسان أيضاً، اعتقد أن في استطاعته أن يحصل على ميزة خاصة لنفسه، وعلى أن ينال الخطوة لدى نظير له من خواص المقربين إلى الله. فلما عجزوا عن تقسيم الإله نفسه، استكثروا من عدد وكلائه وغالوا بأهميتهم كل المغالاة حتى صارت مظاهر الإجلال والاحترام الواجبة للقديسين والملائكة أشبه بعبادة الأوثان في نظر معظم المسيحيين، حتى خيف على المسيحية نفسها من أن تنتكس وتعود إلى تلك المعتقدات الخرافية التي كانت قد قصت عليها من قبل.

وظاهر، أنه كلما زالت الحواجز التي تفصل كل أمة عن أخرى في هذه الدنيا، وتفصل كل مواطن عن أخيه في الأمة الواحدة، اتجه العقل البشرى، كالدفع من تلقاء نفسه، نحو الاعتراف بإله واحد قادر على كل شيء يعامل الناس كافة بقوانين واحدة وبطريقة واحدة. فمن الأهمية بمكان إذن، في تلك العصور الديمقراطية الحديثة، أن لا يسمح بالخلط بين الاحترام الذي يوجه إلى الأولياء والقديسين وبين العبادات الواجبة للدخالق وحده.

وثم حقيقة أخرى لا تنقل في نظري وضوحاً عما سبقها. فالشعائر الدينية الخارجية يجب أن تكون أقل في العصور الديمقراطية منها في العصور الأخرى.

وسبق أن بينت عند الكلام على منهج الأمريكيين الفلسفي، أن العقل لا ينفرد في عصور المساواة من شيء ما، نفوره من الإذعان للأخذ بالشكليات والمظاهر. فالناس الذين في مثل تلك العصور لا يطبقون الصبر على تلك الرموز، فهي لا تعدو في نظرهم أن تكون مجرد حيل صيانية قصد بها أن تخفي حقائق يجب أن تعرض بشكل علني سافر في رائحة النهار. فهم بطبيعتهم لا تحركهم إقامة الاحتفالات، ولا الاهتمام بالطقوس، ولا هم يميلون لأن يجعلوا لتفاصيل العبادة الجماعية غير أهمية ثانوية .

فعل من يقع عليهم عبء تنظيم طقوس الدين الخارجية في عصر ديمقراطي أن ينتهوا كل التنبه إلى نزعات العقل البشري الفطرية هذه، حتى لا يصطدموا بها لغير ضرورة .

وإني لأومن كل الإيمان بضرورة تلك المظاهر الخارجية والشكليات التي تركز العقل البشري في التأمل في الحقائق المجردة، وتعاونه على اعتناقها في تمسك وحرارة، وعلى الثبات على الاستمساك بها . ولست أتصور أنه في الإمكان المحافظة على دين ما ليس له شعائر خارجية يراعيها المؤمنون به . ولكني، من جهة أخرى، مقتنع كل الاقتناع بأن الإسراف فيها، والاستكثار منها استكثاراً لا يقف عند حد في العصور التي نحن مقبلون عليها، سيكون خطراً كل الخطر، وأنه لأحرى بنا أن نقصرها على ما هو ضروري ضرورة ملحة للمحافظة على المبدأ نفسه الذي يعد جوهر الدين، والذي تعد الأشكال الخارجية رمزاً له وتعبيراً عنه . فالدين الذي أصبح يحرص كل الحرص على مراعاة التفاصيل . حتى أصبح غير سمح، ومتقلاً بمراسم وطقوس صغيرة، في الوقت الذي ازدادت فيه المساواة بين الناس . هذا الدين سرعان ما يصبح مقصوراً على فئة صغيرة من المتعصبين المتحمسين، وسط جمهور كبير من المتشككين .

هذا، وقد يعترض علينا، بأن جميع الأديان لها حقائق عامة خالدة . تجعلها غرضاً لها . ومن ثم لا تستطيع أن تكيف نفسها بحسب ميول كل عصر . وهي ميول متغيرة . من غير أن تفقد في أعين البشر ما تطالب به لعقائدها من سمات اليقين . وإني لأعود وأجيب على ذلك بأن الآراء الرئيسية التي تعد عماد عقيدة ما، والتي يسميها رجال الدين بقواعد الإيمان، يجب أن تميز بكل حرص وعناية من الحواشي المتصلة بها . فليس للأديان مندوحة عن أن تستمسك كل الاستمساك بالأولى، مهما كانت روح العصر الخاصة ؛ ولكن عليها أن تعنى كل العناية بالألتقيد إلى هذا النحو ذاته بما يتعلق بالثانية في الوقت الذي يكون فيه كل شيء في تحول وتطور، وحيث العقل البشري (وقد تعود على إدراك موكب البشرية المتحرك) يأتي، إلا على كره منه، أن يظل جامداً على نقطة ما أيا كانت . فدوام الأشياء الثانوية والخارجية لا مكان له في نظري إلا عندما يكون المجتمع المدني نفسه راكداً لا يتطور . أما في حالة أخرى فهو في رأيي خطر .

وسيتضح لنا فيما بعد أن بين جميع الشهوات التي تولدها المساواة، أو تؤيدها شهوة معينة تجعل هذه المساواة متوهجة بوجه خاص، وتبها في قلب كل إنسان . وما تلك الشهوة

سوى حب (الرفاهية)؛ فالليل إلى الرفاهية قوى طاغ، وهو السمة البارزة التي لا تحصى، من السمات التي تتميز بها العصور الديمقراطية .

ولا مانع من أن نعتقد أن الديانة التي تجعل همها القضاء على عاطفة راسخة هذا الرسوخ، مألها أن تهلك بها، وإن حاولت أن تحرم على الناس تحريماً مطلقاً أن يفكروا في خيرات هذه الدنيا وطيباتها كى يوجهوا كل مواهبهم وقدراتهم إلى التفكير في الآخرة وحدها - فأنذرها بأن عقول الناس سينتهى بها الأمر إلى أن تفلت من سيطرتها أو تتجه إلى الاقتصار على الانهماك في الاستمتاع بما في هذه الدنيا من الملذات الحسية .

فمن أهم ما يعنى به كل دين من الأديان هو العمل على تطهير هذا الميل المفرط إلى الرفاهية وحدها، وتنظيمه وكبحه، وهو ميل يشعر به الناس في عصور المساواة. ولكن من الخطأ أن نحاول كبتة تماماً أو اقتلاعه من النفوس؛ فمن الصعوبة بمكان تحويل الناس عن حب المال، ولكن من الميسور إقناعهم بضرورة كسبه من طريق حلال .

وهذا يفضى بنا إلى نقطة أخيرة تشمل سائر النقاط بشكل ما . فكلما ازدادت أحوال الناس الاجتماعية مساواة صار من الأهمية بمكان للأديان، وهى الحريصة على الابتعاد عن شئون الحياة اليومية ومتاعها، أن لا تصدم، لغير ضرورة، الأفكار العامة التي يسلم بها الناس عادة، ولا تلك المصالح الدائمة التي يهتم بها الشعب . فكلما صار الرأى العام أكبر السلطات القائمة وأعظمها سلطاناً، لا يبقى للمبدأ الدينى خارج نطاقه، أى سند قوى يمكن له من أن يصمد أمام هذا الرأى العام الطاغى . ويصدق هذا على الشعب الديمقراطى الذى يحكمه مستبد، كما يصدق على النظام الجمهورى . فكثيراً ما يتطلب الملوك الطاعة في عصور المساواة، على حين تتطلب الأغلبية الإيمان دائماً . فيجب أن تحترم الأغلبية إذن في جميع ما لا يتناقض مع العقيدة .

لقد أنبت في الجزء الأول من هذا الكتاب كيف أن رجال الدين الأمريكين يتأون بأنفسهم عن الاشتغال بالشئون الدنيوية . فهذا أوضح مثال على قدرتهم العظيمة على ضبط أنفسهم، ولكنه ليس بالمثل الوحيد . فمجال الدين في أمريكا منفصل عن سائر المجالات؛ والسيادة فيه للقسيس الذى يحرص على ألا يفادره . فيه يسيطر على عقول الناس، أما خارجه فهو يدعهم وشأنهم ويتركهم لاستقلالهم وعدم استقرارهم الأمرين اللذين من طبيعتهم وطبيعة عصرهم . ولم أر في حياتى بلداً تظهر فيه المسيحية في صور وأشكال وطقوس أقل مما تظهر به في الولايات المتحدة؛ ولا بلداً يقدم للعقل البشرى أفكاراً محددة بسيطة وعامة مثلما تقدمه . ومع أن المسيحيين فيها ينقسمون طوائف عدة، فهم ينظرون جميعاً إلى الدين على هذا الضوء . ويصدق هذا على الكاثوليك كما يصدق على سائر الطوائف . فليس في العالم قسس من الكاثوليك يظهرون ميلاً إلى ضرورة الطقوس الدينية، ولا إلى وسائل النجاة الخاصة أو غير العادية، أقل مما يظهره القسس الأمريكين .

ولا من يتعلقون بروح الدين أكثر منهم، ولا بحريته أقل منهم . ولا يوجد بلد آخر يعلم فيه مبدأ الكنيسة الذى يحرم توجيه العبادات الخاصة بالله وحده، إلى القديسين، بأوضح مما يعلم فيها أو يتبع . ومع ذلك كله فأصحاب المذهب الكاثوليكي في أمريكا خاضعون كل الخضوع ومخلصون كل الإخلاص .

وتم ملاحظة أخرى تصدق على رجال الدين من كل طائفة من الطوائف المسيحية . فخدام الإنجيل الأمريكيون لا يحاولون توجيه أفكار المرء كلها إلى الحياة الأخرى وحصرها فيها ، بل إنهم ليرضون منه أن يوجه شطراً من اهتمامه إلى شئون هذه الحياة الدنيا، فكأنهم يعتبرون طيبات هذه الدنيا أمراً هامة . وإن كانت في مرتبة ثانوية . فإن لم يشاركوا هم أنفسهم في الأعمال الصناعية<sup>(١)</sup> والتجارية الإنتاجية، فإنهم يهتمون على الأقل بالعمل على إنجاحها، ويغضبون بما تناله من تقدم وازدهار . ومع أنهم لا يملكون من الإشارة إلى كل مؤمن - بأن الآخرة معقد آمالهم ومصدر مخاوفهم، فإنهم لا يمتنعون من أن يسعى مخلصاً وراء السعادة في هذه الدار الدنيا . فبدلاً من أن يبينوا أن هذين الأمرين منفصلان ومتناقضان لا يأتلان، عكفوا على دراسة المواضع التى يمكن أن يلتقيا فيها ويرتبطا ببعضهما ببعض أوثق ارتباط .

فالفلس الأمريكيون جميعاً يعرفون ما للأغلبية من سلطان على العقول، ومن ثم صاروا يحترمون هذا السلطان، ولا هم يعرضون أبداً للاصطدام به، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك؛ ولا هم يشاركون في مهاترات الأحزاب، ولكنهم لا يترددون بالأخذ بما في بلادهم وعصرهم من الآراء العامة؛ وأنهم ليسا يرون راضين، وبدون مقاومة تيار العواطف والآراء الذى يجرف كل شيء حولهم . إنهم يسعون وراء العمل على إصلاح معاصريهم، ولكنهم لا يعتزلونهم ولا ينفصلون عن مزاملتهم بحال من الأحوال . فلا غرو إن كان الرأى العام لا يعادهم أبداً، بل يساندتهم ويحميهم، فمعتقداتهم تدين بما لها من سيطرة وتأثير، إلى ما بها من قوة ذاتية، كما تدين بهما كذلك إلى تلك القوة التى تستمدها من آراء الأغلبية .

وهكذا نرى أن الدين، باحترامه جميع النزعات الديمقراطية التى لاتعارض معه في شيء، وباستخدامه الكثير من هذه النزعات فيما فيه مصلحته الخاصة، يقوم بكفاح موفق، مع روح الاستقلال الفردى، وهى الروح التى يعدها ألد خصومه .

(١) لعل هذه إشارة إلى إشهار إفلاس الأب اليسوعى انطون دولا قالت (١٧٠٧ - ١٧٦٢) الذى حدث سنة ١٧٥٨ واتخذ ذريعة لإلغاء جمعية الآباء اليسوعيين .

## الفصل السادس

### تقدم المذهب الكاثوليكي في الولايات المتحدة

تعد أمريكا أعظم بلاد العالم ديمقراطية، وهي في الوقت نفسه، كما تقول المصادر الجديدة بالثقة، البلاد التي يتقدم فيها هذا المذهب بخطى سريعة؛ وهذا أمر لا شك يبدو مدهشاً لأول وهلة.

على أنَّا يجب أن نميز بين أمرين اثنين تمييزاً دقيقاً. فالمساواة تدفع الناس لأن يُكوّنوا آراءهم بأنفسهم؛ ولكنها من جهة أخرى، تثبت فيهم فكرة أن السلطة التي تحكم المجتمع يجب أن تكون سلطة واحدة بسيطة نزيهة، لا تتحيز لأحد، ومن ثم صار الناس الذين يعيشون في العصور الديمقراطية يميلون كل الميل إلى رفض الإيمان بكل سلطة دينية. ومع ذلك، فإن هم ارتضوا الإذعان لأية سلطة من هذا القبيل، آثروا أن تكون، على الأقل، سلطة واحدة غير متعددة، ومنسجمة مع نفسها. فالقوى الدينية التي لا ترجع كلها إلى مصدر واحد مشترك تكون بطبيعة الحال بغیضة إلى نفوسهم. وما أسهل أن يستقر في أذهانهم أن عدم وجود دين واحد، ووجود أديان متعددة سيان.

هذا وأنا لنرى من الكاثوليك من يرتدون عن الإيمان في الوقت الحاضر أكثر منهم في أى عصر سلف؛ ونرى من البروتستانتين من يصبأون إلى الكتلكة؛ فإن نحن نظرنا إلى هذه الكتلكة من الداخل خيل إلينا أنها تتناقض وتتدهور، على حين أنا إن نظرنا إليها من الخارج بدت لنا في ازدياد وتقدم. وما تفسر ذلك بعزیز. فلم يعد الناس في عصرنا يميلون إلى الإيمان إلا قليلاً، وإن هم آمنوا واعتنقوا ديناً ما فسرعان ما يستشعرون في أنفسهم نزعة قوية كامنة تدفعهم، على غير تفتن منهم، إلى الأخذ بالعقيدة الكاثوليكية. فإن الكثير من مبادئ هذه الكنيسة ليدهشهم كل الدهشة، ومع ذلك فهم يشعرون بإعجاب خفي بنظامها وبقوانينها، وأن وحدتها العظيمة تسترعى انتباههم. فلو أن الكتلكة ابتعدت في النهاية عن الخصومات السياسية التي سبق أن تولدت عنها هي ذاتها، لن يساورني أدنى شك في أن روح العصر نفسها التي تبدو ضدها، ستكون هي نفسها في صفها تؤيدها. وأنها ستقدم فوراً تقدماً فجائياً عظيماً.

فمن نقاط الضعف المعروفة في العقل البشرى أنه يحاول التوفيق بين المبادئ المتناقضة

ويشترى المنطق بالسلام والاطمئنان . فلا غرو أن كان ثمة مفكرون - وسيظلون موجودين دائماً - بعد أن أخضعوا بعض معتقداتهم الدينية لسلطة ما ، يسعون لتخليص الكثير من البعض الآخر منها ، ويدعون عقولهم طافية تتأرجح على غير هدى بين الحرية والخضوع . وأرائي ميالاً إلى الاعتقاد بأن عدد هؤلاء المفكرين سيظل في العصور الديمقراطية أقل منه في غيرها ، وأن اتجاه الخلف إلى أن ينقسموا قسمين اثنين سيزداد ، فقسم منهما سيهجر المسيحية تمام الهجران ، وقسم آخر يعود إلى الكتلكة .

## الفصل السابع

### ميل الأمم الديمقراطية إلى القول بالحلول

سأشرح فيما بعد كيف يتجلى ميل الشعوب الديمقراطية الشديد إلى المعاني العامة، في السياسة. أما الآن فحسبى أن أبين هنا أن أهم تأثير لهذا الميل في الفلسفة.

لانزاع في أن مذهب الحلول قد تقدم في عصرنا خطوات واسعة. ففي كتابات بعض الدول الأوربية آثار واضحة لهذا المذهب. فقد أدخله الألمان في الفلسفة وأدخله الفرنسيون في الأدب، فلا تخلو أغلب الكتب التخيلية الموضوعة في فرنسا من بعض الآراء المستمدة من مذهب الحلول هذا، أو على لون منه، أو هي تكشف عن وجود نزعة من نزعاته في مؤلفيها. ولا يرجع هذا في نظري إلى سبب عارض، بل يرجع إلى سبب دائم.

فكلما اقتربت أحوال الناس الاجتماعية في المساواة، أو ازدادت أحوال كل امرئ اقتراباً من أحوال الآخرين حتى صار بذلك ضعيفاً وهيناً مثلهم - اعتاد الناس أن ينظروا إلى الشعب في جملته، لا إلى المواطنين فرادى؛ فصاروا يفتنون بشأن الأفراد، وينظرون إلى الجنس البشري وحده. ففي مثل هذه الأوقات يتجه العقل إلى أن يشمل بنظرة واحدة طائفة كبيرة من أشياء شتى دفعة واحدة، ويحاول باستمرار أن يعلق عدة نتائج بسبب واحد؛ ولكن فكرة الوحدة تظل تستولى على فكره، ويظل هو يسمي وراءها دائماً، حتى إذا ما خيل إليه أنه عثر بها أخلد إلى الراحة قانعاً بما اعتقد. وإذا لم يكتبف بأن يدرك أنه ليس في الوجود سوى خالق واحد، وخليقة واحدة؛ بقى في ضيق وحيرة من أمر هذا التقسيم المبدئي للأشياء، وواصل سعيه مختاراً وراء توسيع مفهوم فكرته هذه وتبسيطها، بأن يضع الله والكون بأكمله في كل واحد شامل.

فإن كان ثم نسق فلسفي يقول بأن جميع الأشياء التي في هذا العالم، المادى منها وغير المادى، المرئى منها وغير المرئى، لاتعد سوى أجزاء شتى من كائن عظيم واحد، هو وحده الخالد وسط ذلك التحول الموصول يتحور كل مقوماته، استخلصنا من ذلك في يسر وسهولة أن مثل هذا النسق، وإن كان قد يهدم فردية الإنسان، أو بالأحرى، لأنه يهدم هذه الفردية، سيكون له من المفاتن الخفية ما يستهوى أهالى البلاد الديمقراطية. فكل

عاداتهم في التفكير تطوع لهم الأخذ بهذا النسق وتستميلهم إلى اعتناقه، فهو يستهوى  
خيالهم ويركزه فيه، ويغذى كبرياءهم، بينما يرضى حمول عقولهم وكسلها .

وفي اعتقادي أن مذهب الحلول هذا من أصلح النظم التي تفسر بها الفلسفة الكون  
بقصد تضليل العقل البشري في العصور الديمقراطية، فخلق بأولئك الذين يستمسكون  
بإيمانهم بعظمة الإنسان الحقيقية، أن يتضافروا ويكافحوا هذا المذهب .

## الفصل الثامن

# أوحى المساواة بين الأمريكيين بأن قابلية الإنسان للكمال لا نهاية لها

توحى المساواة إلى العقل البشرى بأفكار عدة، ما كانت لتنشأ فيه من مصدر آخر، كما أنها تعدل معظم ما فيه من أفكار سابقة. ولنضرب لذلك مثلاً بفكرة قابلية الإنسان للكمال، لأنها من الأفكار الرئيسية التي يسهل على العقل إدراكها، ولأنها في نفسها، نظرية فلسفية عظيمة تتجلى آثارها واضحة في كل مكان في ممارسة الناس شئونهم العملية.

فعلى الرغم من وجوه الشبه الكثيرة التي بين الإنسان والحيوان، فثم صفة واحدة خاصة به وحده، فإنه يتحسن ويترقى، أما الحيوان فلا - ولم يفك الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة من البداية، ففكرة القابلية للكمال قديمة إذن قدم العالم نفسه، ولم تنشأ عن فكرة المساواة، وإن كانت هذه قد أفاضت عليها صبغة جديدة.

فعندما ينقسم المواطنون في مجتمع ما طبقات على أساس مراتبهم أو على أساس المهنة، أو النسب والأصل: وعندما يضطرون جميعاً إلى سلوك الطريق الذي ألقته في المصادفات الطارئة - عند ذلك يستقر في ذهن كل امرئ أن أقصى حدود الطاقة البشرية ليست بعيدة عن متناوله؛ ولم يعد أحد يحاول أن يقاوم قانون مصيره المقدر عليه، ليس ذلك لأن الشعب الأرستقراطي ينكر إنكاراً تاماً ما في الإنسان من قدرة على التطور والترقى، ولكن لأنه (هذا الشعب) لا يعتقد أن هذه القابلية مطلقة لا حد لها ولا نهاية. فالأرستقراطيون يستطيعون أن يتصوروا إمكان التحسن والترقى، أما التغير فلا؛ ويدركون أن المجتمع قد يكون، في المستقبل، في حالة أفضل مما هو عليها، ولكن هذه الحالة لا تستلزم أن تكون مختلفة (بالضرورة) عما كان عليه من قبل فعلاً. فعلى حين أنهم يسلّمون بأن البشر تقدموا حقاً خطوات واسعة، وبأن مجال التقدم لا يزال أمامهم واسعاً للمزيد، فإنهم يضعون سلفاً حدوداً معينة لتقدمه هذا، لا يستطيع أن يتعداها.

فالأرستقراطيون لا يعتقدون أنهم قد وصلوا إلى الخير الأسمى، أو إلى الحقيقة المطلقة (وأى شعب، بل، وأى فرد يبلغ به الخرق، أن يحظر ذلك بخياله) ولكنهم مقتنعون بأنهم

قد قاربوا هذه الدرجة من العظمة والمعرفة، التي تسمح بها طبيعة البشر القاهرة. وإذا كان كل شيء حول هؤلاء الأرسقراطيين جامداً لا يتحرك، خيل إليهم أن كل شيء قد أصبح مستقراً في مكانه الملام له؛ وعندئذ يخجل للمشترع أنه إنما يسن قوانين خالدة؛ ويخجل للملوك وللشعوب أنهم يقيمون آثاراً خالدة كذلك، وأن الجيل الحاضر قد اضطلع بمهمة توفّر على الأجيال المقبلة هم العمل على تنظيم مصائرهم ومقدراتهم.

وكلما زالت الطبقات المغلقة، واقتربت طبقات المجتمع العادية بعضها من بعض؛ وكلما اختلفت العادات والآداب والعرف والقوانين من جراء اختلاط الناس الصاحب؛ وكلما ظهرت حقائق جدد، وزالت آراء قديمة وحلت محلها أخرى جديدة؛ كلما حدث ذلك كله قامت أمام العقل صورة كمال مثالي، وإن كانت صورة «مهزوزة» رجراجة غير محدودة دائماً. فلا غرو أن صارت تحدث كل لحظة تغييرات مستمرة على مشهد من كل إنسان. فمن الناس من يسوء مركزهم من جرائها، ولا يسعهم إلا أن يروا بكل وضوح أنه من المستحيل على أي شعب أو فرد مهما بلغ من الاستتارة والعلم، أن يدعى العصمة. وقد تتحسن أحوال آخرين من جرائها كذلك، فيستخلصون أن الإنسان في حملته مزود بقدرة لا حد لها على التطور والتحسين، فيتعلمون لما يصيبهم من فشل وإخفاق أن أحداً لم يتوصل بعد إلى استكشاف الخير المطلق؛ أما ما يحرزونه من نجاح فيشجعهم على مداومة السعي وراء ذلك الخير المطلق والاقتراب منه. وهكذا يظل الإنسان في سعي موصول، فيكبو دائماً وينهض دائماً. وكثيراً ما ينخدع - ويشعر بحجية الآمال - ولكن همته لا تنضب ولا يعتربه وهن أو يأس، فيظل يتجه باستمرار نحو تلك العظمة التي لا حد لها، والتي يلمحها بشكل غامض عند نهاية الدرب الطويل الذي مازال على بنى الإنسان أن يسلكوه.

ومن العسير على المرء منا أن يصدق، كثرة عدد الحقائق التي تترتب على هذه النظرية الفلسفية التي تقول بأن قابلية الإنسان للكمال لا نهاية لها ولا حد. أو أن يصدق مدى ما لها من ذلك التأثير حتى على أولئك الذين يشتغلون بالأمر العملية ولم يشتغلوا قط بالتأمل والتفكير النظري، يدون أنهم يكتفون سلوكهم وأفعالهم بحسب هذه النظرية دون أن يدروا عنها شيئاً.

حدث أن صادفت ملاحاً أمريكياً، فسألته عن السبب في أن سفن بلاده يراعى فيها ألا تعيش سوى وقت قصير، فأجابني على الفور بأن فن الملاحة يتطور كل يوم تطوراً سريعاً، حتى إن خير سفينة لتصبح عديمة الجدوى بعد بضعة أعوام.

فمن هذه العبارة التي جاءت عرضاً على لسان ملاح غير متعلم، بشأن موضوع خاص، أدركت تلك الفكرة العامة المنسقة التي يجرى عليها شعب عظيم في تسيير كل شئونه.

هذا، وتميل الأمم الأرسقراطية كل الميل إلى الإسراف في تصييق مجال الترقى للإنسان، وقابليته للكمال، على حين تميل الأمم الديمقراطية إلى توسيع هذا المجال ومد أطرافه إلى مدى قد يتجاوز الحد المعقول.

## الفصل التاسع

# مثل الأمريكيين ليس دليلاً على عدم مقدرة الناس في الأمم الديمقراطية في ميدان العلوم والآداب، ولا على عدم ميلهم إليها

يجب أن نعترف بأن العلوم العالية، لم تتقدم في عصرنا إلا في عدد قليل من الأمم المتحضرة، أقل مما تقدمته في الولايات المتحدة، وأن عدداً ضئيلاً منها كذلك ظهر فيه من كبار الفنانين وفحول الشعراء ومشاهير الكتاب أقل ممن ظهوروا في الولايات المتحدة. هذا، وقد تأثرت طائفة كبيرة من الأوربيين بهذه الحقيقة، فخيّل لهم أنها نتيجة طبيعية محتمة من نتائج المساواة بين الناس في أحوالهم الاجتماعية، وتوهموا أنه لو حدث أن ساءت الديمقراطية ومؤسساتها الحرة بلاد العالم كلها لخفت شيئاً فشيئاً تلك الأنوار التي يهتدى بها العقل البشرى، وانتكس الناس وعادوا يعيشون في دياجير الجهل وظلماته. وفي اعتقادي أن من يفكرون هذا التفكير يخلطون بين عدة أفكار يجب أن تظل منفصلة بعضها عن بعض، وأن يبحث كل منها على حدة. فقد خلطوا، على غير قصد منهم، بين ما هو ديمقراطي وبين ما هو أمريكي ليس إلا. فقد كان الدين الذي آمن به المهاجرون الأول الذين وفدوا على أمريكا، وورثوه أحفادهم وذرائعهم، ديناً بسيطاً في شعائره، صارماً كل الصرامة في مبادئه، وخصماً عنيداً لكل المظاهر والرموز الخارجية، ولكل إسراف في الحفلات الدينية، فهذا الدين يتعذر أن يكون نصيراً للفنون الجميلة، فهو يتشدد في عدم الترخيص للناس بمطالعة كتب الأدب حياً في المتعة العقلية. لقد انحدر الأمريكيون من شعب قديم مستنير كل الاستنارة، ووفدوا على بلاد جديدة، مترامية الأطراف، يستطيعون أن يتوسعوا فيها ويتشروا أيما انتشار، وأن يزرعوا من أراضيها ما يشاءون في غير مشقة وجهد. فهذه حالة فذة لا نظير لها في العالم. فلا غرو أن صار كل امرئ إذن يجد من التسهيلات ما لا يعرف في أى بلاد أخرى، ليجمع ثروة، أو ليزيد على ما لديه منها. فالطمع وحب المكاسب طاغيان عليهم دائماً، فلا غرو أن صارت عقولهم، وقد منعت من الاستمتاع بملذات الخيال والفكر، تعنى دائماً بتوجيه الناس إلى السعى وراء المكسب واقتناء الثروات.

ولا يخفى أن في الولايات المتحدة طبقات من التجار والصناع<sup>(١)</sup> مثل ما في غيرها من بلاد العالم. ولكن ما لانجده في غيرها أن يكون جميع الناس مشغولين بالصناعة والتجارة كليهما معاً وفي وقت واحد.

ومع ذلك فأنا مقتنع بأنه لو كان الأمريكيون وحدهم في هذا العالم، وبالطريات والمعرفة التي نالها أجدادهم، وبالنزعات الملائمة لهم، لما عتموا أن استكشفوا أن التقدم في استخدام نواحي العلوم التطبيقية لا يمكن أن يستمر طويلاً من غير العناية بدراسة نواحيها النظرية، وأن الفنون كلها يعاون بعضها بعضاً على بلوغ الكمال، وأنهم مهما انهمكوا في السعى وراء غرضهم الرئيسي الذي توجههم إليه رغباتهم، فإنهم لا يلبثون أن يدركوا أن لامناص لهم من أن يتوقفوا من آن لآخر عن العمل لهذا الغرض، كى يتيسر لهم أن يدركوه آخر الأمر على وجه أفضل.

ومع ذلك فالليل إلى المتع العقلية أمر طبيعي، محبب إلى قلوب المتحضرين، فلا يعلم المرء أن يجد على الدوام في الشعوب المتمدنية القليلة الإقبال على هذه المتع، عدداً من الناس يشاركون فيها، حتى إذا ما شعر الإنسان بهذا التشوق العقلي، لم يلبث أن يجد وسيلة لإشباعه.

ولكن الوقت الذى كان فيه الأمريكيون لا يشعرون بحاجة إلى العلم إلا من حيث تطبيقاته العملية الخاصة بالفنون النافعة، وبالوسائل التي تجعل الحياة مرضية مريحة، كانت أوروبا مقبلة كل الإقبال على العلوم والآداب، ومعنية بالبحث عن المصادر العامة للحقيقة، وبالعمل في الوقت نفسه على تحسين كل ما يمكن أن يعين على زيادة متعة الإنسان وعلى سد احتياجاته الضرورية.

فعلى رأس الأمم المتحضرة المستترة في الدنيا القديمة وجد سكان الولايات المتحدة أمة يمتون إليها بصلات وثيقة، من حيث الأصل وتشابه العادات، ووجدوا فيها من كبار رجال العلم ومن الفنانين البارعين والكتاب الممتازين من أتاحوا لهم الاستمتاع بروائع ما أنتجته العقول، من غير حاجة إلى أن يجشموا أنفسهم متونة جمعها. فعلى الرغم من المحيط المترامي الأطراف لست أوافق من يقولون بانفصال أمريكا عن أوروبا، فشعب الولايات المتحدة جزء من الشعب الانجليزي كلف استكشاف غابات الدنيا الجديدة. أما بقية الأمة، فإنهم يستمتعون بقسط أكبر من أوقات الفراغ، ولا يحتاجون إلى الكدح في سبيل الرزق، فهم يستطيعون أن يوجهوا نشاطهم إلى شئون الفكر ويعملون على توسيع مجال العقل البشرى ومد آفاقه في كل اتجاه.

فمركز الأمريكيين إذن مركز شاذ كل الشذوذ، لم يتح لأمة من الأمم الديمقراطية

(١) مما يجدر بالذكر هنا أن الحركة النفاية بدأت في أمريكا حوالى سنة ١٨٢٥ بدأها روبرت أون (Robert Owen) الاشتراكي البريطاني (١٧٧١ - ١٨٥٨) وهو الذى أنشأ مستعمرة نيوهارموني في إنديانا.

أن تنعم بمثلها، فأصل الأمريكيين البيوريتاني (المتطهر) المتشدد في الدين وعاداتهم التجارية الغالبة عليهم، بل والبلاد نفسها التي استقروا فيها، التي يبدو أنها تبعد عقولهم عن موالاته الاشتغال بالعلم والأدب؛ وقربهم من أوروبا الذي أتاح لهم أن يحملوا هذه النواحي من غير أن يرتكسوا في البربرية - تلك الأسباب، وكثير غيرها، مما لا أستطيع أن أذكر سوى أهمها، وقد تضافرت بشكل عجيب على تركيز عقول الأمريكيين في الأمور العملية المادية الخضة: فأهواء الأمريكي واحتياجاته وتعليمه، وكل شيء حوله - تعاونت كلها على اجتذاب سكان الولايات المتحدة إلى العناية بشئون الدنيا، فليس غير الدين وحده يحمله بين الحين والحين أن يوجه إلى السماء نظرة مشتتة عابرة، فينبغي ألا ننظر إلى جميع الأمم الديمقراطية ونحكم عليها أو لها بحسب مثال الشعب الأمريكي هذا، بل يجب أن نحاول أن ننظر إليها من حيث هي ذاتها .

من اليسر علينا أن نتصور أمة خلقت من أية طبقة «مغلقة». ومن أى نظام متدرج لمراتب الناس ومقاماتهم، ومن كل طبقة أياً كانت - أمة لا يعترف فيها القانون لأحد بأية امتيازات تميزه على غيره. ويقضى فيها بتقسيم التركات تقسيماً سوياً بين الورثة، وفي الوقت نفسه تكون هذه الأمة، ومع ذلك كله، محرومة من المعرفة ومن الحرية. ليس تصور مثل هذه الأمة مجرد افتراض خيالي أجوف، فقد يجد حاكمها المستبد أن من مصلحته أن يقيم المساواة بين رعاياه ويدعهم في الوقت نفسه جهلاء، حتى يتسنى له أن يستبقيهم عبيداً له أذلاء. إن شعباً ديمقراطياً من هذا الطراز لا يمكن أن يبدى أفراداً مقدرة في العلم أو ميلاً إليه وإلى الآداب والفنون، بل يحتمل كل الاحتمال ألا يتجلى فيه شيء من هذا أبداً. فقانون الوراثة نفسه يتكفل بتفتيت الثروات الجسام في كل جيل حتى لا يكون ثمة مجال لأحد للحصول على ثروات جدد. إن الرجل الفقير الذي لا علم لديه، وحرّم كل حرية، قد لا يخطر بباله أن ينهض، ويعمل على إحراز شيء من المال. أما الغنى، فقد تهبط به نفسه إلى مستوى الفقر من غير أن يعرف كيف يدافع عن نفسه. هذا وسرعان ما تقوم بين هذين المواطنين المتطرفين مساواة كاملة دائمة، وعندئذ لا يكون عند أحد الوقت ولا الميل لينهمك في المتع الذهنية أو الأعمال العقلية بل يظل الناس سواء في جهلهم، وسواء في عبوديتهم .

وعندما أتصور بلداً ديمقراطياً من هذا الطراز أتخيل نفسي في مسكن من تلك المساكن الخائفة المظلمة، حيث لا يلبث الضوء الباهت الذي يأتي من الخارج أن يخفت ويذول، فيغشاني جو ثقيل يجعلني أتبعث في الظلام الشامل، أتلمس طريقي إلى مخرج يؤدي إلى ضوء النهار. ولكن هذا كله يصدق، على الناس الذين أصبحوا بالفعل مستبشرين الذين ظلوا أحراراً - بعد أن ألغوا الحقوق الخاصة المتوارثة التي قضت بجعل الأملاك والثروات محصورة في أيدي قلة من الأفراد أو في أيدي طبقات معينة من طبقات المجتمع .

فإن كان الناس الذين يعيشون في مجتمع ديمقراطي، مستبشرين، لم يلبثوا أن يستكشفوا

أن لاشيء يجبرهم على أن يكونوا مقيدين بمراكزهم الراهنة، ولا ثابتين جامدين فيها، وأن ليس ثمة ما يلزمهم بالرضى بمحوظتهم الحالية. ومن ثم، فهم يسارعون إلى التفكير في العمل على زيادة ثروتهم. فإن كانوا أحراراً عمدوا إلى تنفيذ ما فكروا فيه، ومع ذلك فهم لا ينجحون جميعاً بشكل واحد. حقاً إن التشريع لم يعد يمنح أحداً شيئاً من الامتيازات، ولكن الطبيعة ما زالت تمنحها. فلما كان التفاوت الطبيعي بين الناس كبيراً، فإن حظوظهم ستختلف وتباين منذ اللحظات التي يأخذ فيها كل منهم في استخدام جميع ما لديه من مواهب للحصول على الثروة.

هذا، وقانون الإرث يمنع قيام أسرات غنية، وإن كان لا يمنع قيام أفراد أغنياء؛ فهو يدفع بالمواطنين نحو مستوى عام، ولكنهم لا يلبثون أن يعملوا على الخروج عنه باستمرار كذلك. وهكذا يزداد الناس تفاوتاً في الثروة بمقدار انتشار التعليم والحرية بينهم.

حدث أن قامت في عصرنا طائفة اشتهر أفرادها بالمواهب العالية وبالإنفاق في آرائهم، فاقترحت تركيز جميع الأموال في أيدي سلطة مركزية واحدة، يكون عملها في توزيع هذه الملكيات على الناس من جديد، بحسب ما لديهم من مواهب، وما بهم من جدارة<sup>(١)</sup>. وهذه لاشك طريقة للتهرب من مبدأ المساواة الكاملة الأبدية التي يبدو أنها تهدد البلاد الديمقراطية. ولكن ثمة علاج أبسط من هذا العلاج وأقل منه خطراً، وذلك أن نمتنع عن منح أى امتياز لأحد يفضله على سواه، وأن نعلم الناس جميعاً تعليماً واحداً ونعترف باستقلال كل منهم استقلالاً يعادل استقلال سواه، ثم نتركهم جميعاً وشأنهم يقرر كل منهم مصيره بنفسه ويشكله بنفسه - عندئذ سرعان ما يتجلى فيهم التفاوت الطبيعي، وتتقل الثروة من تلقاء نفسها إلى أيدي أقدرهم وأكفأهم.

وهكذا ستمثل المجتمعات الديمقراطية الحرة تشتمل على طائفة من الأغنياء أو اليسوري الحال، المرتبطين بعضهم ببعض ذلك الارتباط الوثيق الذي كان بين أفراد الطبقة الأرستقراطية القديمة - بل سيكونون ذوى ميول متباينة، ولن يتاح لهم أبداً الاستمتاع بذلك الفراغ المضمون الكامل الذي كان يستمتع به أهل تلك الطبقات الأرستقراطية؛ إلا أنهم مع ذلك أكبر عدداً مما كانت تلك الطبقة في أى يوم من الأيام. ولن يقتصر هؤلاء الأغنياء كل الاقتصار على العناية بشئون الحياة المادية وحدها، بل سيظلون قادرين على الاستمتاع بالملذات العقلية وبالأعمال العقلية، وإن كان استمتاعاً مختلف الدرجات، إنهم سيحسون بالاستمتاع بهذه المنع العقلية، لأنه إن صح أن العقل البشرى ميل، من ناحية، نحو كل ما هو محدود ومادى نافع، فإنه من ناحية أخرى يسمو بطبيعته نحو اللانهاى وغير المادى، ونحو الجميل والجليل، فالاحتياجات الفيزيقية الكثيرة تربطه بالأمر المادية، وبشئون هذه الدنيا، ولكن مادامت هذه الرابطة قد انحلت فسينهض العقل ويسمو من تلقاء نفسه.

(١) لعل المؤلف يشير هنا إلى سان سيمون وأنصاره (١٦٧٥ - ١٧٥٥) وإلى أنصار فورييه (Fourier) (١٧٧٩ - ١٨٣٧) الاشتراكيين المعروفين.

لا يزداد عدد الذين يستطيعون العناية بشئون الفكر زيادة كبيرة فحسب، بل إن الميل إلى المتع العقلية سيزداد كذلك ويظل يقترب شيئاً فشيئاً من أولئك الذين كانوا في المجتمعات الأرستقراطية لا يجدون الوقت ولا القدرة على الاستمتاع بها. فإذا لم تعد ثم ثروات تالدة موروثه، ولا امتيازات تقوم على أساس الحسب والأصل، وإذ لم يعد المرء يستمد قوته إلا من نفسه وحدها - يتضح لنا السبب الرئيسي لتفاوت حظوظ الناس، وتباين ثرواتهم، يرجع كله إلى العقل وحده؛ فكل ما يساعد على تنشيط العقل ومد آفاقه أو تجميله يصبح في الحال ذا قيمة عالية؛ وستنجلي فوائد التعليم بارزة حتى لأنظار الجماهير ممن لا يتدقون روعة التعليم، فيعلون من قيمة نتائجه، ويذلون الكثير من الجهد في تحصيله.

ليس في العصور الديمقراطية الحرة المستنيرة ما يدعو إلى انزعال الناس بعضهم عن بعض، ولا إلى استبقائهم جامدين في مراكزهم، بل هم يرتفعون عليها ويهبطون دونها بسرعة عظيمة، فجميع الطبقات متصلة بعضها ببعض من جراء قرب كل منها من الأخرى<sup>(١)</sup> فأعضاؤها يتصلون، ويتحاكون ويتنافسون ويتحاسدون، مما يوحى إلى الشعب بكثير من الأفكار والرغبات التي لم تكن تخطر لهم ببال من قبل، لو أن الطبقات كانت ثابتة والمجتمع جامداً لا حركة فيه ولا نشاط. ففي مثل هذه الأمم لا يعد الخادم نفسه أبداً غريباً كل الغريبة عن مسرات سيده وأفعاله، ولا الفقير من مسرات الغنى وأعماله؛ ويحاول سكان الريف أن يتشبهوا بسكان الحضر، وسكان الإقليم بسكان العاصمة. فليس ثمة أحد يسمح لنفسه بسهولة أن يقصر كل همه على مشاغل الحياة المادية وحدها، بل نجد أدنى صانع يلقي نظرة خاطفة على شيء من ميادين الفكر السامية؛ فالناس لا يقرأون بنفس الروح ولا بنفس الطريقة التي كان يقرأ بها إخوانهم في البلاد الأرستقراطية، فذاثرة القراء تظل تتسع باستمرار حتى تشمل الشعب بأسره.

وحيثما يشرع الجمهور في الاهتمام بشئون الفكر يتبين له أن التفوق في ناحية منها وسيلة ناجحة للحصول على الجاه والقوة والثروة والمال فسرعان ما يتجه هذا الطموح القلق الذي ولدته المساواة إلى هذا الاتجاه مثل غيره، ويزداد عدد الذين يعنون بالعلوم والآداب والفنون زيادة كبيرة، ويزخر عالم العقل بنشاط جم، فيحاول كل امرئ أن يشق لنفسه طريقاً فيه ويجتذب إليه أنظار الناس، وعندئذ يحدث شيء شبه ما هو حادث في الولايات المتحدة من الوجهة السياسية، قد يكون الكثير مما ينجز ناقصاً قاصراً، ولكن المحاولات التي تتم كثيرة لا حصر لها. ومع أن نتائج الجهود الفردية ضئيلة في العادة، فجملة نتائجها الكلية كبيرة دائماً.

فليس صحيحاً إذن ما يقال من أن الناس الذين يعيشون في العصور الديمقراطية لا يحفلون بطبيعتهم بالعلوم ولا بالفنون والآداب. ولكن يجب أن نعرف بأنهم إنما يوالونها ويتعهدونها على طريقتهم؛ وفيها يتجلى ما فيهم من عيوب وما بهم من محاسن.

(١) انظر الخطاب الشهير الذي ألقاه روييه كولار Royer Collard السياسي الفرنسي، في مجلس النواب الفرنسي عن الديمقراطية بمناسبة قانون المطبوعات.

## الفصل العاشر

# الأمريكيون يؤثرون دائماً العلوم العملية على النظرية

إن كانت الجماعات والمؤسسات الديمقراطية لاتعرفل تقدم العقل البشرى ، فليس من شك في أنها تؤثر أن توجهه وجهة معينة على أخرى . ومع ذلك فجهودها عظيمة ، على الرغم من هذا التحديد ، فلا غرو إن أنا تلبثت هنا برهة أدرسها فيها .  
سبق أن أتحت لنا الفرصة ، عند الكلام على منهج الأمريكيين الفلسفى ، فأبدينا عدة ملاحظات يجدر بنا أن نفيد منها هنا .

فالمساواة تولد في كل إنسان الرغبة في أن يكون مستقلاً بنفسه في الحكم على ما يريد أن يبدى رأيه فيه ، وتجعله ميالاً إلى الواقع المحسوس في كل الأمور ؛ مستهيناً بالتقاليد والشكليات ، ومعتقراً لشأنها . وستجلى لنا كل هذه النزعات العامة التى تكاد تكون فطرية في موضوع هذا الفصل .

إن الذين يعملون في ميدان العلوم في البلاد الديمقراطية يخشون دائماً أن يضلوا طريقهم في مناهات الطوييات ، والتأملات الخيالية ، ولذا تراهم يسيئون الظن بالنظم وبالإنسان ويؤثرون أن يلتزموا ، ما استطاعوا ، الواقع والحقائق ، وأن يدرسوها مباشرة بأنفسهم . ولما كانوا يحرصون كل الحرص على ألا يتأثروا بقوة اسم أى إنسان من بنى جنسهم أو بشهرته ؛ صاروا لا يميلون إلى الاعتماد على أحد ولو كان حجة في موضوعه . فعلى العكس من ذلك ، تراهم لا يألون جهداً في البحث عن نقاط الضعف فيما يقول . فليس للسوابق العلمية أى وزن عندهم ، ولا هم يظنون أبداً يحفلون طويلاً بدقائق النظريات والمدارس الفلسفية ، ولا هم يميلون أن يخذعوا أنفسهم بالألفاظ الرنانة ، بل يتفعلون ما استطاعوا في صميم النقاط الرئيسية للموضوع الذى هم بصدده ، ويفضلون أن يعبروا عنها بلفظ التخاطب المعهودة لكل الناس ، فالبحوث العلمية إذن تنتهج طريقاً آمن من غيره وأكثر حرية ، وإن لم يبلغ من السمو ما بلغه غيره .

ويبدو لي أن العقل يقضى بتقسيم العلوم ثلاثة أقسام :  
قسم يشمل المبادئ النظرية البحتة والمبادئ المحدودة التي لم يسبق أن طبقت ، أو  
التي لا يزال تطبيقها بعيداً .

ويشمل القسم الثاني الحقائق العامة التي تؤدي مباشرة ومن أقصر طريق ، إلى نتائج  
عملية وإن كانت هذه الحقائق من قبيل النظريات البحتة .

أما القسم الثالث فيشمل طرائق التطبيق ووسائل التنفيذ .

وكل قسم من أقسام العلم المختلفة هذه ممكن تعهده وموالاته دراسته ، وإن كانت  
الخبرة والعقل تدلان على أنه لا يتسنى لقسم من هذه الأقسام أن يزدهر طويلاً ، إذا ما  
انفصل انفصلاً تاماً عن القسمين الآخرين .

ويعنى الأمريكيون كل العناية بالقسم العملي المحض من هذه الأقسام وبالناحية النظرية  
التي يستلزمها التطبيق المباشر ، وهم يدون هنا دائماً قدرة عقلية محددة وواضحة ، حرة ،  
مبتكرة ، وعميقة . ومع ذلك فإننا لانكاد نجد أحداً في الولايات المتحدة كلها يكرس  
جهوده للناحية النظرية الخالصة المجردة من نواحي المعرفة البشرية ، والأمريكيون مسرفون  
هنا إسرافاً كبيراً ، نجده ، على ما اعتقده ، في جميع البلاد الديمقراطية ، ولكن بشكل أقل مما  
في أمريكا .

ولا يخفى أن لاشيء أزم للاشتغال بالعلوم العليا ، وبالنواحي السامية من العلم ومن  
التأمل والتفكير . وليس شيء أقل صلاحاً للتأمل من نظام المجتمعات الديمقراطية الداخلية .  
فإننا لانجد فيها ما نجده عند الشعوب الأرستقراطية من حيث وجود طبقة كبيرة من الناس  
تتسم بالثبات والاستقرار من أجل ثرائها ، وطبقة أخرى جامدة لاتتقدم ، بسبب ما  
اعتراها من يأس من تحسين أحوالها . ذلك ، على حين أن كل امرئ في البلاد الديمقراطية  
في حركة موصولة . فمنهم من يسعى وراء القوة والسلطان ، ومنهم من يسعى وراء المال .  
فأين يتسنى لنا وسط هذه الحركة العامة ، واصطراع المصالح المتضاربة ، ووسط ذلك  
السعي المتواصل وراء الثروة والمال - أن نجد ذلك الهدوء الذي لاغنى عنه للتفكير  
العميق ؟ كيف يستطيع العقل أن يركز قوته في نقطة واحدة ، وكل ما حوله في حركة  
دائبة ، والإنسان نفسه قد يكتسحه التيار الجارف الذي يجرف كل شيء .

ولكى ينبغي أن نفرق بين ذلك النوع من الحركة الدائمة الذي تتميز به الديمقراطية  
المسالمة الهادئة ( القائمة على أساس وطيء ) وبين تلك الحركات الصاخبة الثورية التي تكاد  
تصاحب دائماً مولد كل مجتمع ديمقراطي ونشأته ، فعندما يحدث انقلاب عنيف بين ظهري  
شعب بلغ في ميدان الحضارة شأنًا عظيماً ، كان لامناص من هذا الانقلاب من أن يحرك

عواطف الناس وأفكارهم ويطلقها فجأة<sup>(١)</sup>. ويصدق هذا - بوجه خاص - على الثورات الديمقراطية التي تحرك جميع طبقات الشعب دفعة واحدة. وفي الوقت ذاته تولد في نفس كل عضو من أعضاء المجتمع مطامع قوية وآمالاً واسعة لا تحدد، لقد تقدمت فرنسا في أثناء الثورة الفرنسية خطوات عجيبة في العلوم، المضبوطة، في نفس الوقت الذي كانت تعمل فيه على القضاء على ما تبقى من آثار مجتمعي الإقطاعي السالف، ومع ذلك يجب ألا يعزى هذا التقدم الفجائي في العلم إلى الديمقراطية، بل إلى تلك الثورة المنقطعة النظر التي صاحبت نمو الديمقراطية. فما حدث في ذلك الوقت كان حدثاً خاصاً وليس من الحكمة في شيء أن نتخذة دليلاً على وجود قاعدة عامة<sup>(٢)</sup>.

لا تحدث الثورات الكبرى في البلاد الديمقراطية أكثر مما تحدث في غيرها من البلاد، بل إلى لأميل إلى القول بأن حدوثها فيها أقل. ولكن ثم حركة صغيرة تسود تلك الجماعات الديمقراطية، وهي حركة متعبة، من نوع تلك الحركات الدائمة التي تجري بين الناس المتزاحمين بالمناكب فضايق العقل وتعكره، من غير أن تستشره وتسمو به إلى مستويات عليا.

فمن النادر أن ينهك الناس الذين يعيشون في المجتمعات الديمقراطية في التأمل والتفكير النظري. بل إنهم لا يولونه بالطبع إلا قليلاً من الاحترام والتقدير. فأحوال المجتمع الديمقراطي ومؤسساته تدفع الكثرة الكاثرة من السكان إلى أن يظلوا يعملون باستمرار، ولا يخفى أن عادات العقل التي تناسب الحياة العملية النشيطة لا تصلح دائماً لحياة التأمل والتفكير. فرجل العمل والنشاط كثيراً ما يضطر إلى أن يقنع بأن يحصل على خير ما يستطيع الحصول عليه، لأنه لن يتمكن من إنجاز عمله، إن شاء أن يصل بكل دقيقة من دقائقه، وبكل تفصيل من تفاصيله إلى مرتبة الكمال؛ فأمامه ظروف تجعله يستد إلى آراء وأفكار لا يجد لديه الوقت الكافي لتحقيقها وسر أغوارها، وكثيراً ما يجد أن الفكرة الملائمة التي يستخدمها في عمله، تعينه على إنجاز هذا العمل أكثر مما تعينه دقتها العلمية الصارمة، ذلك إلى أنه سيجد في النهاية أن ما يخاطر به في استاده في عمله إلى بضعة مبادئ زائفة، لأقل من مخاطرته بإنفاق وقته في التحقق من أن كل مبدأ من المبادئ التي يسير عليها في عمله، صحيح. فالعالم لا يسير بالأدلة الطويلة، أو التي فيها علم واسع غزير، فالنظرة السريعة إلى حقيقة جزئية، والدعوى في دراسة شهوات الجماهير، المتغيرة العابرة، وأحداث الساعة، وفن استغلالها والإفادة منها - هي التي تتحكم في شؤون هذا العالم.

(١) يذكرنا هذا بما حدث في القرن السابع عشر عندما قامت حركة الإصلاح الديني في أوروبا وظهر طوفان من الرسائل والكتب الدينية ولا سيما أن فن الطباعة كان قد ظهر في الوجود. ويذكرنا كذلك بما حدث قبل الثورة الفرنسية قرب انعقاد مجلس الطبقات، وفي أثناء الثورة نفسها فقد نشرت آلاف من الرسائل «وكراسات العرائض» المشهورة.

(٢) لعل المؤلف يشير إلى أمثال لافوازييه مؤسس علم الكيمياء الحديث، والذي قتل في أثناء الثورة الفرنسية ١٧٩٤ والمركز جوفروا Jovard d Abbans (١٧٥١ - ١٨٣٢) الذي هجر إلى الفرنسيون أنه أول من اخترع السفن البخارية وأجرها في نهر الرون سنة ٧٨٣. ولكن أحداث الثورة الفرنسية عاقته عن المضي في عمله، ومن ثم كان فلطن Fulton الأمريكي أول من نجح في تسيير سفينة بالبخار على نهر السين سنة ١٨٠٢ ثم في نهر هدسن بأمریکا.

ففى العصور التى تتميز بالعمل والنشاط، يتجه الناس عادة إلى المغالاة بقيمة الخواطر السريعة، والأفكار الضحلة السطحية؛ على حين أنهم يقللون أكثر مما ينبغى من شأن أعمال العقل البطيئة العميقة. فرأى الجمهور هذا يؤثر فى أحكام المشتغلين بالعلم والعاملين على النهوض به، ويجعلهم يعتقدون أن فى استطاعتهم أن ينجحوا من غير حاجة إلى التأمل الطويل، أو هو يعددهم عن الدراسات التى يتطلبها.

هذا ولدراسة العلم طرق عدة. فقد نجد فى كثيرين ممن يتوفرون على دراسته، ميلاً أنانياً تجارياً، وصناعياً، إلى ما يصل إليه العقل من كشوف، فيجب ألا نخلط بين هذا الميل وبين تلك الشهوة العارمة، النزوية البعيدة عن المنافع الشخصية، والتى تضطرم فى نفوس فئة قليلة من الناس. فالرغبة فى استغلال المعرفة شئ، والرغبة الخالصة فى مجرد الإلمام بها لذاتها شئ آخر. هذا، وإنى لا يساورنى أى شك فى أنه قد تنشأ فى نفوس بعض الناس، وفى فترات متباعدة، محبة للحق، قوية، فياضة، لا ينضب معينها، تعتمد على نفسها وحدها، وتظل تؤتى ثمارها باستمرار، من غير أن يأتى عليها يوم ترضى فيه تمام الرضى، فمحبة الحقيقة المتوقدة هذه، المعتزة بنفسها، المنزهة عن كل منفعة شخصية، هى التى تسمو بالناس إلى مصادر الحق المجرد التى يستمدون منها أمهات أفكارهم.

فلو كان هدف «بسكال»<sup>(١)</sup> لا يعدو إحراز الثروة؛ بل لو كان حب الشهرة وحده هو الذى يحفزها، لما تصورت أبداً أنه كان يستطيع تعبئة جميع قواه العقلية كما فعل، ليقف على أخفى أسرار سنن الله الكونية. وعندها أرى أنه قد باعد بين نفسه وبين كل هموم الحياة، ليفرغ لتلك البحوث التى أولع بها، ثم يقطع النياط التى تربط جسمه بالحياة، ويموت بالشيخوخة، قبل أن يبلغ سن الأربعين - عندما أرى ذلك كله يستولى على الذهن، وأعترف بأن الحافز الذى دفعه إلى بذل ما بذل من جهود جبارة لا يمكن أن يكون حافزاً عادياً مثل سائر الحوافز.

هذا، ولسوف يظهر لنا المستقبل إن كان من الجائز أن تكون تلك الشهوات النادرة والمثمرة فى وقت واحد، فى البلاد الديمقراطية وتنمى فيها بسهولة ويسر، كما توجد وتنمى فى البلاد الأرستقراطية، أما أنا فلا بد لى من أن أثبت طويلاً قبل أن أصدق هذا.

ولما كانت الطبقة التى توجه الرأى العام فى البلاد الأرستقراطية، وتفيض عليه صغته المميزة له، والتى بيدها زمام الإدارة فيها أيضاً قد أقيمت بصفة دائمة ووراثية على رأس الجماعة: فلا غرو أن صارت لديها فكرة عالية عن نفسها وعن الإنسان. فهى مولعة بأن تختزع للشعب ألواناً من المسرات الباهرة، وبأن تقيم له أغراضاً باهرة يتجه إليها. هذا، وليس من شك فى أن الأرستقراطيين كثيراً ما يرتكبون أفعالاً استبدادية ظلمة كل الظلم،

(١) بلز بسكال (١٦٦٣ - ١٦٦٢) الفيلسوف الفرنسى والعالم الرياضى المعروف.

وبعيدة عن الإنسانية كل البعد، ولكن من النادر أن تخطر لهم أفكار دينية، فهم يدون نوعاً من ذلك الازدراء المستعلي للملذات الوضيعة، حتى ولو كانوا هم أنفسهم ممن ينهكون فيها، مما أدى إلى رفع روح الشعب العامة، ففي العصور الأرستقراطية تتكون عند الناس آراء تؤثر في الذين يتعهدون العلم ويوالون دراسته. كما تؤثر في المجتمع كله، وتيسر للعقل أن يندفع اندفاعه الطبيعي إلى أسنى مستويات التفكير، وإنما لتعده لحب الحقيقة حياً جليلاً يكاد يكون قدسياً .

يتجه المشتغلون بالعلم في هذه العصور إذن صوب العناية بنواحيه النظرية، بل قد يحدث أنهم كثيراً ما يدون احتقاراً أخرق كل الخرق لممارسة النواحي العملية منه، قال بلوتارك: كان أرشميدس ذا نفس سامية كل السمو، فقد أبى كل الإباء أن ينزل ليكتب أية رسالة أو كتاب في إنشاء تلك الآلات الحربية، وإذا كان يرى أن اختراع الآلات وتركيبها، وجميع الفنون التي ترمى إلى غرض عملي نافع، يجب أن تعد في جملتها خيثة دينية، ووسيلة من وسائل كسب المال. فقد أنفق مواهبه ووقته في الكتابة في الأمور التي لا يشوب ما فيها من جمال ومن دقة الفن شيء من الحاجة والضرورة. وهكذا كما لا يخفى هدف العلوم في البلاد الأرستقراطية، وإنه لبعيد كل البعد أن تكون هذه هي الحال في البلاد الديمقراطية .

فمعظم الناس الذين تتكون منهم هذه الأمم (الديمقراطية) همون كل النهم في سعيهم وراء اللذات الحسية التي في متناولهم. ولما كانوا غير راضين دائماً عن المراكز التي يشغلونها، وكانوا أحراراً دائماً في مغادرتها، صاروا لا يفكرون في شيء سوى الوسائل التي تمكنهم من أن يغيروا حظوظهم، أو يزيدوا ثروتهم. فكل طريقة في نظر من تميل عقولهم هذا الميل، جديدة وتؤدي إلى الثروة بطريق أقصر، فكل آلة توفر العمل، وكل أداة تقلل من تكاليف الإنتاج ونفقاته، وكل كشف يسر الاستمتاع بالملذات أو زيدها - كل شيء من هذه يبدو لهم خير مجهود يبذله العقل البشري. وهذه البواعث نفسها هي التي تحفز الأمم الديمقراطية إلى التعلق بالدراسات العلمية، وإلى فهمها واحترامها، فالعلم في العصور الأرستقراطية مطلوب منه أن يزود الناس بالمتع العقلية بوجه خاص. أما المطلوب منه في العصور الديمقراطية أن يزودهم بالملذات الحسية .

فكلما كانت الأمة أكثر عراقة في الديمقراطية، وأعظم استارة، وأكبر حرية، ازداد فيها عدد الذين يناصرون عباقرة العلم، وازدادت الكشوف التي يصح أن تستغل مباشرة في الصناعات الإنتاجية، وتفيض على كاشفها الثراء، وتكسبهم بعد الصيت، بل وه السلطة، كذلك. ذلك لأن الطبقة العاملة في البلاد الديمقراطية تشترك في حكم البلاد وفي إدارة شئونها العامة، فحرى بمن يخدمونها أن ينتظروا منها كل تكريم زيادة على ما يتوقعونه من جزاء مالي .

ففى الجماعة المنظمة مثل هذا التنظيم سهل علينا أن نتصور أن العقل البشرى سهل توجيهه، وعلى غير وعى منه إلى إغفال الجوانب النظرية، على حين أنه يندفع، على العكس من ذلك، بكل همه ونشاط لانظير هما وراء رعاية النواحي التطبيقية، أو على الأقل، إلى ذلك الجزء من العلوم النظرية الذى لاغنى عنه لمن يقومون بتطبيقها عملياً، فبعثاً ما تحاول نزعة فطرية فى الإنسان الارتفاع بالعقل البشرى إلى المجالات السامية. فالصحة تهبط به إلى المجال الوسط، حيث يتيسر له أن يبدى كل ما فيه من نشاط قلبي، ويأتى بالعجب العجيب، فهؤلاء الأمريكيون أنفسهم الذين لم يستكشفوا لنا قانوناً عاماً واحداً من قوانين الميكانيكا قد أدخلوا فى الملاحظة آلة جديدة سوف تغير وجه العالم<sup>(١)</sup>.

إنى لأبعد الناس عن القول بأن الأمم الديمقراطية التى فى عصرنا كتب عليها أن تشهد انطفاء تلك الأضواء الباهرة التى تستضيء بها عقول الناس، ولا حتى بان هذه الأمم لن تأتىنا بقبس جديد. ففى العصر الذى وصل إليه العالم الآن، وبين ذلك العدد الكبير من الأمم المتعلمة التى تستثمرها باستمرار حتى الصناعات الإنتاجية، لابد أن تبعث تلك الروابط، التى تربط مختلف أقسام العلم بعضها ببعض - تبعث الدهشة فى كل من يلاحظها؛ فإن كان الميل إلى العلوم العملية ميلاً مستتراً، وجب ألا يدفع الناس إلى إغفال العلوم النظرية. فلا مفر لنا فى المحاولات الكثيرة التى تبدل فى تطبيق ما يجرى كل يوم من التجارب العديدة من أن نصل إلى كثير من القوانين العامة وإظهارها إلى حيز الوجود، وبذلك تكثر الكشوف العلمية على الرغم من قلة كبار المخترعين.

وزيادة على ذلك فإنى أومن كل الإيمان بالمهن العلمية العالية. فإن كانت الديمقراطية لا تحمّل الناس، من جهة، على الاشتغال بالعلم للعلم - فإنها، من جهة أخرى، تزيد عدد الذين يشتغلون به زيادة كبيرة، وليس معقولاً ألا يظهر من بين هذا العدد الضخم، الفينة بعد الفينة، عبقرى نظرى لا يحفزه سوى حب الحق وحده. وليس من شك فى أن مثل هذا العبقرى سيفوص إلى أعماق الطبيعة يكتبه أسرارها، مهما كانت روح عصره، وروح بلاده، فهو ليس بحاجة إلى معاونة أحد على السير فى الطريق الذى اختار، بل حسبه ألا يجد فيه ما يعرفه. فكل ما أبغى أن أقوله، هو أن دوام التفاوت بين الناس يدفعهم إلى الاقتصاد على الاشتغال بالبحوث العقام المستعيلة فى الحقائق المجردة، على حين أن الأحوال الاجتماعية، والمؤسسات الديمقراطية تجعلهم لا يتطلبون من العلوم سوى تطبيقاتها المباشرة النافعة، وهذه نزعة طبيعية ولا مناص منها، فمن قبيل الفضول أن نلم بها، ولكن من الضرورى أن نشير إليها هنا.

(١) يشير المؤلف إلى استخدام البخار فى تسيير السفن، ويعزى استكشاف ذلك إلى روبرت فلطن (Robert Fulton) الأمريكى (١٧٦٥ - ١٨٨٥) الذى أشرنا إليه فى تعليق سابق فى الجزء الأول، ولى هامش سابق من هذا الجزء.

فلو أن الذين وكل إليهم في عصرنا الحاضر إرشاد الشعوب وتوجيهها، أدركوا هذه النزعات النظرية إدراكاً واضحاً، ومن بعد - وهي نزعات سرعان ما تصبح قوية لا تقاوم - لعرفوا أن المواطنين في البلاد الديمقراطية لا يسعهم، بما لديهم من الحرية والمعرفة، إلا أن يعملوا على تحسين نواحي العلوم المتصلة بالصناعة والأعمال فينبغي أن نعمل من الآن على توحيد جهود السلطات الرسمية جميعاً وتكليفها لمناصرة التعلم والدراسات العالية فيه وعلى تقوية ما في الناس من شهوات نبيلة له . ولا مندوحة لنا في العصر الحاضر من أن نوجه العقل البشرى إلى الاشتغال بالدراسات النظرية، لأنه يتجه من تلقاء نفسه إلى التطبيقات العملية . فبدلاً من أن يوجه باستمرار إلى دراسة النتائج الثانوية وفحصها فحصاً دقيقاً، فمن الخير إبعاده عنها أحياناً، كي نسمو به في النهاية إلى التأمل في الأسباب الأولى .

لقد دالت حضارة روما القديمة على أثر غزوات البرابرة لبلادهم وفتحها، وقد يوحى إلينا هذا بأن الحضارة لاتنهار إلا بمثل هذا السبب . لو حدث وانطلقاً سراج الحضارة الذي نسترشد به الآن لبدأ بأن يجبو شيئاً فشيئاً ثم ينطفئ من تلقاء نفسه، فالانقصار على مجرد التطبيق العملي، والتشبث به، قد يؤدي إلى إغفال العناية بالنظريات والمبادئ إغفالاً تاماً، حتى إذا ما نسيت هذه تماماً أدى إلى إساءة استخدام الطرق المستمدة منها : ولما لم تعد ثمة طرق جديدة مخترع، فيسظل الناس يطبقون من غير فكر، ومن غير فن، عمليات علمية أصبحوا لا يفهمونها .

لما وصل الأوربيون<sup>(١)</sup> لأول مرة إلى الصين من ثلاثمائة سنة مضت وجدوا فيها جميع الفنون، أو جلها، وقد وصلت إلى درجة طيبة من الكمال، فاستولى عليهم الدهش أن يروا شعباً بلغ تلك الدرجة من الرقي، ثم يقف عندها ويجمد . هذا، وقد وجدوا في عصر آخر متأخر عن ذلك العصر، آثاراً لبعض فروع عالية من العلم ضاعت . لقد كانت تلك الأمة جميعها مشغولة بالصناعات الإنتاجية، وما زال الجزء الأعظم من التطبيقات العملية محفوظاً لديها، أما العلم نفسه فلم يعد له وجود فيها . وهذا مايفسر لنا أسباب هذا الغموض الغريب الذي منيت به عقول ذلك الشعب، فقد نسى الصينيون، باقتنائهم آثار أجدادهم، الأسباب التي كان يستهدى بها هؤلاء الأجداد، فظلوا يستخدمون القوانين والصيغ العلمية دون أن يجشموا أنفسهم متونة أن يسألوا عن معناها، ولذا احتفظوا بالأداة، من غير أن يحتفظوا بفرن تعديليها أو تجديده مما جعلهم يفقدون القدرة على التصير حتى صار أمر ترقيتهم مستحيلاً، فاضطروا أن يظلوا يحاكون أجدادهم في كل وقت، وفي كل ناحية؛ مخافة أن يضلوا ويتورطوا في الظلام الحالك إن هم حادوا قيد أمثلة واحدة عن

(١) وصل ماركو بولو إلى الصين في القرن الثالث عشر . فقد اصطحبه معها أبوه نيكولو وعمه ماتيو التاجران البندقيان في رحلتها الثانية إليها حيث بقوا في خدمة عاهلها المغولي قبلاى خان سبع عشرة سنة (١٢٧١ - ١٢٨٨) ثم عادوا إلى أوروبا سنة ١٢٩٣ . وفي أواخر القرن السادس عشر عاد البرتغاليون إلى الاتصال بالصين .

الطريق الذى رسمه لهم السلف ، حتى كاد نهر المعارف البشرية عندهم أن يجف ، ومع أنه ظل يجرى فلم تعد له القدرة على الفيضان ، بل ولا حتى على أن يغير مجراه .

وعلى الرغم من هذا كله ظلت الصين تحيا فى هدوء عدة قرون ، واتخذ الغزاة الذين فتحوها عادات أهلها ، ثم سادها النظام والاستقرار . وتجلى فى كل ناحية من نواحيها نوع من الازدهار المادى ، لقد كانت الثورات فيها نادرة . وكادت الحرب أن تكون غير معروفة فيها .

فمن المغالطة إذن أن نخدع أنفسنا ونظن أن البرابرة مازالوا بعيدين عنا ، فإن سمحت بعض الشعوب لغيرها بأن تنتزع مصابيح الحضارة من أيديها ، فثم شعوب أخرى أطفأت حضارتها بنفسها وداستها بالأقدام .

## الروح التى يتعهد بها الأمريكيون الفنون

لو أنى حاولت أن أشرح للقراء كيف أن اعتدال ثروات الناس العام، وعدم وجود ثروات فائضة تزيد على الحاجة، عندهم، وأضحت رغبتهم العامة فى رفاهة العيش وراحته، وما يذله كل منهم من جهود متصلة لتوفير هذه الراحة لنفسه - لو أنى حاولت أن أبين كيف جعلت هذه الأمور ميل الناس لما هو نافع، يطفى فى قلوبهم على حب الجميل، لأضعت وقى ووقتهم سدى، فالأمة الديمقراطية التى نجد فيها هذه الأمور ستجده إذن نحو رعاية الفنون التى تعاون على جعل الحياة ميسرة سهلة، وتؤثرها على غيرها من الفنون التى ترمى إلى جعلها جميلة فحسب؛ فهى تفضل عادة النافع على الجميل، وتطلب من الجميل أن يكون نافعاً .

ولكنى مع ذلك سأسير إلى أبعد من هذا المدى، فبعد أن أفرغ من شرح أولى هذه السمات، سأعود وأشرح الكثير غيرها بإيجاز .

فكثيراً ما يحدث فى العصور التى تسودها الامتيازات . أن تصح الفنون كلها تقريباً امتيازاً، وتصح كل مهنة قائمة بذاتها منفصلة عن سواها، فلا يسمح لكل من شاء، أن يلتحق بها، وحتى عندما تكون الصناعات الإنتاجية حرة، فبات أخلاق الأمم الأرستقراطية الطبيعى، سرعان ما يؤدى بجميع أولئك الذين يمارسون فناً معيناً، إلى أن ينفصلوا عن غيرهم ليكونوا لهم طبقة أو طائفة قائمة بذاتها . كل أعضائها يعرفون بعضهم بعضاً، فلا يلبث أن ينشأ بينهم رأى عام ونوع من الكبرياء والاعتزاز بالطائفة، ففى كل طائفة أو نقابة صناعية من هذا القبيل لا يكون هم كل صانع أن يجمع ثروة خاصة فحسب، بل أن يعمل على أن يحافظ على سمته كذلك . فهو ليس محكوماً بمصلحته الشخصية وحدها دون غيرها، بل تحكمه مصلحة عملائه أيضاً، ومصلحة الطائفة التى ينتمى إليها . وهى مصلحة تنحصر فى وجوب أن يكون ما ينتجه الصانع على خير ما يستطيع من الدقة والإتقان . ففى العصور الأرستقراطية لا يعدو الهدف الذى ترمى إليه الفنون إذن تجويد ما يصنع إلى أقصى حد ممكن، وليس أن يتم بأقصى سرعة، ولا أن يباع بأرخص سعر .

أما إن كانت كل مهنة، على العكس من ذلك، مباحة للجميع يدخلها من يشاء

ويغادرها متى يشاء باستمرار، فقد أصبح أعضاؤها، غرباء بعضهم عن بعض، ولا هم يكثرثون بعضهم بشئون بعض، بل ولا يكادون، لكثرتهم، أن يرى أحدهم الآخر، فعند ذلك تفكك الصلات الاجتماعية التي تربطهم، ويحاول كل صانع، وقد صار هكذا وحده، مستقلاً بنفسه، أن يعمل على كسب أكبر ما يستطيع كسبه من مال، بأقل ما يمكن من التكاليف. ولا يمنعه من رفع السعر سوى إرادة المستهلك، ولكن قد يحدث في الوقت نفسه تغيير مماثل في نفس هذا المستهلك. ففي البلاد التي تتجمع فيها الأموال، كما تتجمع السلطات، في أيدي فئة قليلة من الناس، وتظل طويلاً في أيديهم، يصبح استخدام الجزء الأعظم من خيرات هذه الدنيا مقصوراً على عدد صغير من الناس يظلون دائماً هم هم لا يتغيرون. فالضرورة والرأي العام، واعتدال الرغبات، تستبعد سائر الناس من الاستمتاع بتلك الخيرات. فمادامت هذه الطبقة الأرستقراطية ثابتة على قمة العظمة التي تسمنها من غير أن يزداد عدد أفرادها أو ينقص، فستتأثر دائماً بنفس الاحتياطات بطريقة واحدة. فالناس الذين تتكون منهم هذه الطبقة الأرستقراطية يستمدون، بطبيعة الحال، من مركزهم السامي المتوارث هذا، ميلاً لكل ما هو متفنن الصنع متين، مما يؤثر في تفكير الأمة في شئون الفنون والصناعات. وكثيراً ما يحدث بين أمثال هذه الأمة أن يؤثر حتى الفلاح نفسه الاستغناء عن الأشياء التي يصبو إليها، على أن يحصل عليها بشكل فح غير متفنن، فالصانع في البلاد الأرستقراطية يعملون إذن لعدد محدود من المستهلكين، لهم أذواق رفيعة، ويصعب إرضائهم؛ ويتوقف الربح الذي يأمل الصانع أن يناله على مدى عنايته باتقان ما يصنعه.

ولكن الحال لا تكون كذلك، عندما تلغى جميع الامتيازات، وتختلط كل طبقات المجتمع بعضها ببعض، ويظل الناس يرتفعون في السلم الاجتماعي أو يهبطون فيه باستمرار. هذا، وإنا لنجد دائماً في البلاد الأرستقراطية، عدداً من المواطنين ممن قسمت أملاكهم وتناقصت ثرواتهم، قد اعتادوا من قبل في ظروف أسعد مما هم فيه الآن، احتياجات تظل قائمة فيهم حتى بعد أن تكون وسائل سد هذه الاحتياجات قد زالت عنهم، فتراهم يسعون جادين متلهفين وراء طريقة ملتوية خفية لسد هذه الاحتياجات. ومن جهة أخرى نجد في البلاد الديمقراطية عدداً كبيراً من الناس تزداد ثرواتهم، بينما تزداد كذلك رغباتهم بأسرع من تزايد قدرتهم المالية على إرضائها، فهم يتطلعون إلى مزايا الثروة سلفاً، وقبل أن تتوفر لهم وسائل الحصول عليها بزمن طويل. فأمثال هؤلاء الناس يتوقون لمعرفة أقصر الطرق التي تيسر لهم إرضاء تلك الرغبات التي كاد تحقيقها أن يكون في متناول أيديهم. فمن اجتماع هذين السببين تنشأ في البلاد الديمقراطية دائماً جبهة من الناس، حاجاتهم أكثر من قدرتهم على الثراء، فآثروا القناعة بما يسد رغباتهم هذه بشكل ناقص، على أن ينزلوا عنها نفسها نزولاً مطلقاً.

ولا تخفى هذه الاتجاهات على الصانع، فما أيسر عليه إدراكها! لأنه نفسه يشارك فيها،

ولذا نراه في البلاد الأرستقراطية يسمى لبيع منتجاته لفئة قليلة من الناس بثمن عال ، أما الآن فلم يفتحه أن يدرك أن أيسر سبيل إلى الغنى أن يبيع سلعه إلى الجمهور بثمن قليل . وليس أمامه غير طريقين اثنين لتخفيض أثمان سلعه ، أولاها أن يوفق إلى وسائل أسرع وأيسر لإنتاجها ، والثانية إنتاج مقادير ضخمة متشابهة ، ولكنها أقل ثمناً وجودة . فلا غرو أن كانت كل جهود الصانع العقلية تتجه في البلاد الديمقراطية إلى تحقيق هذين الغرضين ، ففراه يبدل كل ما أوتي من جهد لابتكار طرق جديدة ، لا تيسر له أن يشتغل بطريقة أفضل فحسب ، بل وتيسر له كذلك أن يعمل بسرعة أعظم وبتكاليف أقل .. وإن هو لم يوفق في هذا عمد إلى التقليل من قيمة السلعة التي يصنعها دون أن يجعلها غير صالحة لأداء الغرض منها تماماً . ففي العصر الذي لم يكن يستطيع فيه غير الأغنياء أن يحرزوا ساعة ، كانت الساعات كلها تقريباً جيدة كل الجودة ، أما الآن فلم يعد الصانع ينتجون إلا ساعات متوسطة الجودة ، ولكنها في متناول جميع الناس . وهكذا نجد أن المبدأ الديمقراطي لا ينزع إلى توجيه العقل البشري نحو الفنون النافعة فحسب ، بل إنه ليستوى الصانع إلى أن ينتج بسرعة كبيرة سلعاً غير متفنة ، كما يستوى المستهلك إلى الرضا بشراء تلك السلع . وليس معنى ذلك أن الفنون في البلاد الديمقراطية لا تستطيع أن تأتي بالروائع والمعجائب إذا ما اقتضتها الضرورة . فقد يحدث ذلك فعلاً في بعض الأحيان إذا ما توافر للصانع عملاء لا يرضون بدفع قيمة ما ينفقه من وقت وجهد . ففي وسط هذا الصراع القائم بين مختلف أنواع الصناعة ، وفي وسط هذا التنافس الشديد ، وهذه التجارب الكثيرة التي لا تخصي ، قد يظهر بعض الصناع المهرة الذين يستطيعون أن يصلوا إلى أقصى مقتضيات فهم ، ولكن من النادر أن تتاح لهم الفرصة لإظهار ما يستطيعون أن يعملوه ؛ فهم حريصون كل الحرص على ادخار قواهم ، فيظلون في حالة وسطى من حيث ما ينتجون . وهي حالة تقدر نفسها بنفسها ؛ وعلى الرغم من قدرتها على تجاوز الحد الذي فرضته على نفسها ترمى إلى ما هو أسمى منه وأبعد ؛ فهي تقنع بالوقوف عند ذلك الحد من حيث جودة ما تنتجه فعلاً . والأمر على النقيض من ذلك في البلاد الأرستقراطية حيث يستطيع الصانع أن ينفذ كل ما يعرف أن يعمل . فهو يبدل كل ما في طاقته ، وإن توقف عند حد معين كان معنى ذلك أنه قد بلغ أقصى ما يستطيع أن يصل إليه في فنه .

وإذا ما زرت بلاداً فوجدت فيها بعض روائع الفن وآياته ، لم تأخذ هذه الحقيقة مصدراً استمد منه أية معلومات عن أحوال هذه البلاد الاجتماعية ، ولا عن نظامها السياسي . على حين إن كان ما فيها من قطع فنية قاصراً عادة ، وكثير العدد ، ورخيص الثمن ، اقتنعت بأن الامتيازات ، في البلد الذي فيه هذه القطع الكثيرة الرخيصة ، قد أخذت تزول عنه ، وأن المراتب والطبقات قد بدأت تختلط بعضها ببعض ، حتى أصبحت في طريقها لأن تكون كلها واحدة .

فالصانع في العصور الديمقراطية لا يحاولون أن يجعلوا منتجاتهم الفنية في متناول جميع

المواطن فحسب، بل يبذلون جهدهم في أن يصفوا على كل ما ينتجونه صفات جذابة ليست له في الواقع، فحيث تختلط الطبقات بعضها ببعض، يأمل كل إنسان أن يبدو في مظهر ليس له، ويعمل وسعه في أن يحقق أمله هذا. فهذه نزعة طبيعية في النفس البشرية لم تنشأ عن المبدأ الديمقراطي ولكن هذا المبدأ يطبقها على الأغراض المادية، فالرياء في الفضائل موجود في كل عصر. أما التظاهر بالترف فمن سمات العصور الديمقراطية بوجه خاص.

فكي ترضى الفنون هذا الغرور الإنساني، لم تدع نوعاً من أنواع الخداع والتقويه إلا لجأت إليه. وقد بلغ بها تحايلها على ذلك مبلغاً يفوت عليها أغراضها التي ترمى إليها؛ ألا ترى أن أنواع الماس الزائف تصنع الآن بشكل يسهل الخداع المرء، فيعد الزائف منها حقيقياً؟ فإذا ما بلغ الزائف مبلغ الكمال حتى يتعذر تمييزه من الحقيقي، فمن المحتمل أن يهمل الناس النوعين كليهما ويصبح الماس كله عبارة عن حصي ليس إلا.

وهذا يفضي بنا إلى الكلام عن تلك الفنون التي يسمونها بالفنون الجميلة، تمييزاً لها عن غيرها، فلست أعتقد أن قلة عدد الذين يمارسون هذه الفنون يرجع بالضرورة إلى أحوال اجتماعية ديمقراطية وإلى مؤسسات ديمقراطية، ولكن هذه الأحوال وتلك المؤسسات تؤثر تأثيراً بالغاً في الطريقة التي تتبع رعاية هذه الفنون، فالكثيرون ممن يميلون إلى رعايتها أصبحوا فقراء؛ ومن جهة أخرى أخذ كثيرون ممن لم يثروا بعد، يكتسبون هذا الميل إليها عن طريق المحاكاة، وبذلك ازداد عدد المستهلكين في جملتهم، وقل كل القلة عدد من كان منهم ذا ثروة عريضة، وذوق سام رفيع. ومن ثم يحدث في الفنون الجميلة شيء مماثل لما سبق أن أشرت إليه عند الكلام على الفنون النافعة، فقد ازداد إنتاج الفنانين، وضعفت قيمته الفنية؛ فإذا لم يعد في قدرتهم أن يرتفعوا إلى المستوى السامي الجليل، سعوا وراء الجذاب وعنوا بالظاهر والصورة أكثر من عنايتهم بالحقيقة وبالجوهر.

ينتج الفنانون في العصور الأرستقراطية بعض صور فخمة، على حين أنهم ينتجون في العهود الديمقراطية عدداً ضخماً من الرسوم الصغيرة النافعة، ففي الأولى تقام التماثيل من البرونز وفي الثانية من الجص.

فلما وصلت نيويورك لأول مرة عن طريق ذلك الجزء من المحيط الأطلسي الذي يسمونه «نهر الشرق» East River<sup>(١)</sup> دهشت من أن أرى على طول الشاطئ، وغير بعيد عن المدينة عدة قصور صغار مبنية بالمرمر الأبيض، والكثير منها على طراز «كلاسيكي» قديم. فلما عدت إليها في اليوم التالي لأدرس عن كتب، وبمزيد من العناية ما استرعى نظري منها بوجه خاص، فإذا بي أجد جدرانها من الطوب مطلية بالجص،

(١) الأيست «ريفر» هذا هو المر المائي الضيق بين جزيرة لنج آيلند، وجزيرة ماهاتان الموصل بين خليج نيويورك ولنج آيلند ساوند.

وأعمدها من خشب مدهون ، وكذلك كانت سائر المباني التي رأيتها الليلة السابقة ، فكلها من هذا الطراز .

ومع ذلك فالأحوال الاجتماعية والمؤسسات الديمقراطية تفيض على جميع الفنون القائمة على المحاكاة والتقليد نزعات معينة خاصة لايشق علينا تمييزها ، فهي كثيراً ما تبعد الفنانين عن تصوير الروح ليركزوا كل همهم في تصوير الجسم وحده ، ولحلوا تمثيل الحركة والإحساس محل تمثيل العاطفة والفكر . وجملة القول أنهم صاروا يحلون الواقعي محل المثالي .

وإني ليساورني الشك فيما إن كان رافائيل<sup>(١)</sup> قد درس آلية الجسم البشري ودقائقتها المعقدة ، بذلك الإتقان الذي يدرسها به المصورون في عصرنا الحاضر ، فهو لم يعلق مثلهم أهمية كبيرة على مراعاة الدقة الصارمة في هذه النقطة ، لأنه كان يصبو إلى أن يفوق الطبيعة نفسها ؛ وكان يسعى وراء أن يجعل الإنسان شيئاً أسمى من الإنسان ، فقد حاول أن يزين الجمال نفسه ويجمله . هذا ، وكان دافيد<sup>(٢)</sup> وتلاميذه ، على العكس من رافائيل ، يتقنون فن التشريح إتقانهم التصوير ، فأبدعوا في تصوير ما أمام أعينهم من غاذج ، ولكن ندر أن تصوروا شيئاً أسمى منه ، فقد اتبعوا الطبيعة حقاً وصدقاً ، على حين كان رافائيل يسعى وراء تحقيق ما هو أسمى من الطبيعة ، لقد خلفوا لنا صورة للإنسان دقيقة محكمة ، أما رافائيل فكانت أعماله تنم عن لحة قدسية .

إن ما ذكرته عن طريق معالجة موضوع ما يصدق كذلك حتى على طريقة اختياره نفسها ، فالمصورون في عصر النهضة الأوربية كانوا يتجهون عادة إلى ما هو أسمى منهم بكثير ، وإلى أبعد مما في عصرهم ، في بحثهم عن الموضوعات العظيمة القوية التي تتيح لخياهم مجالاً واسعاً لا يحد . أما مصوروننا فكثيراً ما كانوا يستفدون مواهبهم في تصوير تفاصيل الحياة اليومية التي تقع عليها عيونهم باستمرار . فيحاكونها محاكاة صادقة ، فهم ينقلون دائماً أشياء توافه ، أصولها في الطبيعة بكثرة كاثرة .

(١) رافائيل ، الرسام الإيطالي المشهور (١٤٨٣ - ١٥٢٠) ، واسمه الأبطال رافاييلو سانتيزيو .

(٢) دافيد : رسام فلمنكي (١٤٥٠ - ١٥٢٣) . وأكثر صوره زيتية .

دافيد (جاك لوى) : رسام فرنسي شهير (١٧٤٨ - ١٨٢٥) .

## الفصل الثاني عشر

# يقيم الأمريكيون بضع نصب تذكارية قمة تافهة وأخرى بالغة الفخامة

أشرت تروا إلى أن الناس في العصور الديمقراطية يقيمون نصباً تذكارية كثيرة العدد ولكنها قليلة القيمة، وخالية من الفخامة، وأبادر الآن وأذكر ما قد يستثنى من هذه القاعدة .

فلا يخفى أن الأفراد في البلاد الديمقراطية، ضعاف كل الضعف، على حين أن الدولة التي تمثلهم جميعاً، وتشلهم، وتسيطر عليهم كلهم، قوية كل القوة . فليس في غير الأمم الديمقراطية، يكون المواطن تافهاً كل التفاهة، على حين تبدو الأمة نفسها أعظم منه وأفخم، ويسهل على العقل أن يتصورها في شكل واسع كل السعة، فخيال الأفراد في هذه البلاد يضيق عندما ينظرون إلى أنفسهم، ويتسع إلى غير حد، عندما يفكرون في دولتهم، فهؤلاء الناس الذين يعيشون عيشة ضيقة، في منازل خانقة هم أنفسهم الذين يطمحون عادة إلى مراعاة الضخامة والفخامة في إقامة نصبهم التذكارية العامة .

فقد اختار الأمريكيون بقعة واسعة كل السعة لينشوا فيها مدينة ضخمة يتخذونها عاصمة لبلادهم، ولكن عدد سكان هذه العاصمة لم يزد إلى هذه اللحظة على عدد سكان مدينة «نتواز»<sup>(١)</sup> في فرنسا، مع أنهم قالوا إن سكانها سيبلغون المليون أو أكثر في يوم من الأيام<sup>(٢)</sup> . وفعلاً قام الأمريكيون بتطهير الأرض اللازمة من الأشجار على مسافة تمتد عشرة أميال حول هذه المدينة، حتى لا تعرقل في المستقبل حركة المواطنين في هذه العاصمة الخيالية، وأقاموا وسطها قصرأ فخماً للكونجرس أطلقوا عليه «الكابيتول»<sup>(٣)</sup> الرنان .

(١) نتواز : مدينة في فرنسا في مقاطعة السين والواز غير بعيدة عن باريس، يبلغ عدد سكانها ١١٠٠٠ نسمة .  
(٢) بلغ عدد سكان مدينة واشنطن نفسها بحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ : ٨٧٠٠٠٠ نسمة وإذا أضيف إليها سكان الضواحي وعددهم ١٢٦٤٠٠٠ نسمة كانت جملة السكان ٢١٣٤٠٠٠ نسمة .  
(٣) الكابيتول في الأصل اسم على أحد تلول روما القديمة أقيم عليه معبد (٥٢٧ ق.م) للإله جوبيتر بعد أروع معبد في روما القديمة، وهو الآن متحف .  
وهو يطلق الآن في أمريكا على المبنى الذي يضم دواوين الحكومة في كل ولاية، وبخاصة الهيئة التشريعية، وأهمها كابيتول واشنطن ويضم مجلس الكونجرس .  
وضع الحجر الأساسي فيه جورج واشنطن سنة ١٧٩٢ ويبلغ ارتفاع قبة الوسطى ٢٩٠ قدماً يعلوها تمثال الحرية المشهور .

هذا، والولايات المختلفة نفسها الأعضاء في الاتحاد، تضع كل يوم الخطط اللازمة للقيام بمشروعات جسام تنفذها فعلاً، وهي مشروعات تستير دهشة الأمم الأوربية الكبرى .

فالديمقراطية لا تدفع الناس إلى القيام بالكثير من الأعمال الصغيرة فحسب، بل تحفزهم في الوقت نفسه إلى إقامة عدد قليل من النصب التذكارية الهائلة الحجم؛ أما ما بين هذين الطرفين، فلا شيء. ومن ثم صرنا نرى أن إقامة قليل من المباني الضخمة المبعثرة هنا وهناك، لا يدلنا على شيء من الأحوال الاجتماعية للشعب الذي أقام تلك المباني، ولا عن مؤسساته الاجتماعية. هذا وأضيف إلى ذلك (وإن كان ما أضيفه هذا خارجاً عن الموضوع) أنه لا تزيدنا معرفة بمدى عظمة هذا الشعب ولا بازدهاره الحقيقي. فعندما تستطيع قوة ما، أيا كانت هذه القوة، أن تحصل شعباً بأسره على أن يتصافر لينجز مشروعاً معيناً، فإنها ستوفق بقليل من المعرفة، وبكثير من الوقت إلى إقامة شيء جسيم هائل، بوساطة هذه الجهود الكثيرة المتجمعة، إلا أن هذا لا يؤدي بنا، مع ذلك، إلى القول بأن الشعب سعيد وبأنه مستير وقوى كل القوة .

فقد وجد الأسبانون مدينة مكسيكو حافلة بالمعابد الضخمة وبالقصور المنيعة الراحية الأرجاء، ولكن هذا كله لم يمنع كرتيز<sup>(١)</sup> من أن يقهر الإمبراطورية المكسيكية ويستولى عليها بما لا يزيد على ستائة جندي من المشاة وستة عشر حصاناً .

ولو عرف الرومان قوانين الهيدروليكا خيراً مما عرفوها، لما جشموا أنفسهم مثونة إنشاء كل تلك القنوات الحجرية التي تحيط بأطلال مدانتهم، ولكانوا استخدموا قوتهم وأموالهم استخداماً أفضل مما استخدموها فيه. فلو أنهم اخترعوا الآلة البخارية لكان من المحتمل ألا يمدوا إلى أطراف إمبراطوريتهم القصية، تلك الصخور الطويلة الاصطناعية التي نسميها «بالسكك الرومانية». فلكل شواهد رائعة على جهلهم بقدر ما هي شواهد على عظمتهم .

فالشعب الذي لم يخلف لنا سوى بضعة مواسير من الرصاص مدفونة في باطن الأرض وبضعة قضبان من الحديد على سطحها كان يصح أن يسخر الطبيعة ويتغلب عليها أكثر مما فعل هؤلاء الرومان .

(١) هراندو كرتيز الأسباني (١٤٨٥ - ١٥٤٧) - وكان استيلازه على المكسيك سنة ١٥١٨ .

## الفصل الثالث عشر

### خصائص الأدب في العصور الديمقراطية

عندما يدخل السائح في الولايات المتحدة مكتبة، ويفحص ما تزدان به رفوفها من كتب أمريكية، يتبين له أن عدد هذه الكتب كبير جداً، على حين أن عدد المعروفين من مؤلفيها قليل، وكذلك يجد (هذا السائح) عدداً ضخماً من الكتب «الأولية» التي تهدف إلى تزويد الناس بمبادئ المعرفة الإنسانية، وهي كتب وضع أكثرها أصلاً في أوروبا ثم أعاد الأمريكيون طبعها<sup>(١)</sup> بعد تعديلها بما يلائم احتياجاتهم؛ ثم يلي ذلك عدد ضخم من الكتب الدينية، يكاد لا يحصى، من أناجيل وعظات وقصص ومجادلات وتقارير عن جمعيات خيرية، وأخيراً، يجد قائمة طويلة من الكتيبات والرسائل السياسية القصار، ذلك لأن الأحزاب السياسية لا تنشر كتباً تحارب بها آراء خصومها، وإنما تنشر كتيبات ورسائل موجزة تنتشر بين الناس بسرعة تكاد لا تصدق، وإن كانت لا تعيش أياماً ثم تموت .

ولا يخلو الأمر من أن نجد بين منتجات العقل البشري المغمورة هذه بضع مؤلفات أوسع شهرة، لعدد صغير من المؤلفين الذين يعرف الأوروبيون أسماءهم، أو يجب أن يعرفوها .

ومع أن أمريكا قد تكون الدولة المتحضرة في عصرنا التي حظى الأدب فيها بقليل من الاهتمام، فإن فيها مع ذلك عدداً كبيراً من الناس الذين يعنون بشئون الفكر ويجعلونها بهجة ساعات فراغهم، إن لم يجعلوها دراسة عمرهم . ولكن إنجلترا، لا أمريكا، هي التي تزود هؤلاء القراء بأكثر ما يحتاجون إليه من الكتب . فمعظم الكتب الإنجليزية العامة يعاد طبعها في الولايات المتحدة . وعبقورية إنجلترا الأدبية لا تزال تبعث بأشعتها إلى أعماق الغابات التي في الدنيا الجديدة، حتى لا تكاد تجد كوخاً من أكواخ الرواد يخلو من بضعة مجلدات عتيقة من مؤلفات شكسبير . وأذكر أني قرأت مسرحية هنرى الخامس، الإقطاعية، لأول مرة في كوخ من تلك الأكواخ المبنية بالخشب، المعروفة عندهم باسم log - houses .

فالأمر يكاد لا يرجعون باستمرار إلى ذخائر الأدب الإنجليزي فحسب بل لم يعد

---

(١) وكتاب توكيل هذا نفسه ترجم إلى الإنجليزية عقب ظهوره سنة ١٨٣٥ سنة ١٨٤٠، وطبع في أمريكا بعد ذلك سنة ١٨٣٨، ١٨٤٠، ثم نصح الترجمة وعدلها فرنسيس باون ونشرها سنة ١٨٦٢، ثم عدلها فيليب برادلي ونشرها من جديد سنة ١٩٤٥ .

الصواب من قال عنهم إنهم يجدون هذا الأدب نفسه ينمو في تربتهم الأمريكية . فمعظم تلك الفئة القليلة من المشتغلين بالأدب في الولايات المتحدة إنجليز من حيث الأصل ولا يزالون أكثر من ذلك من حيث الشكل . لأنهم ينقلون إلى صميم الديمقراطية الأفكار والآداب الذائعة في الأمة الأرستقراطية التي اتخذوها نبراساً لهم يستضيئون به ، وتعودجاً يحاكونه ، فكأنى بهم يرسون بألوان مستعارة من العادات الأجنبية ، ولا يمثلون أبداً في كتاباتهم روح البلد الذي ولدوا فيه ، بالصورة التي هو عليها . فلا غرو إذن إن لم ينالوا أية حظوة لدى القراء .

وظاهر الأمر أن المواطنين في الولايات المتحدة يدون مقتعين كل الاقتناع بأن ما ينشر بينهم من الكتب لم يوضع لهم ، فقبل أن يجمعوا أمرهم على الإقرار بالفضل لمؤلف من كتابهم كانوا ينتظرون عادة حتى يستوثقوا من رأى الناس في إنجلترا فيه ، شأنهم في ذلك شأن التصوير ، فراسم الصورة الأصلية يعد صاحب الحق الأول في الحكم على ما ينقل عن صورته من نسخ .

فليس عند الولايات المتحدة أى أدب إذن في الوقت الحاضر . والمؤلفون الوحيدون الذين أعترف بأنهم أمريكيون هم الصحفيون ، ومع أنهم ليسوا من كبار الكتاب عادة إلا أنهم يكتبون بلغتها ، ويسمعون الناس أصواتهم . فهم للأمريكيين ما كانه مقلدو الإغريق والروم في حركة النهضة الأدبية وإحياء العلوم ، موضع غرابة وفضول لا موضع عطف عام من الجميع ، لأنهم إنما يلهون العقل ، ولا يؤثرن في عادات الشعب الأخلاقية أى تأثير .

ذكر من قبل أن هذه الحال أبعد من أن تكون قد نشأت في البلاد الديمقراطية وحدها ، فيجب أن يتجه البحث عن أسبابها إلى عدة ظروف خاصة مستقلة عن المبدأ الديمقراطي . فإن كان الأمريكيون . مع احتفاظهم بمجالتهم الاجتماعية وبقوانينهم ، من أصل مختلف عن أصلهم ، ثم انتقلوا إلى بلاد غير بلادهم . لما خامر في أقل شك في أنهم سيكون لهم أدبهم الخاص بهم . ومع ذلك ، وحتى على ما هم عليه . فإن مقتنع بأن سيكون لهم أدب في آخر الأمر : إلا أن سمات هذا الأدب وخصائصه ستكون مختلفة عما يتجلى في كتابات الأمريكيين في العصر الحاضر ، وستكون هذه السمات وتلك الخصائص أمريكية ، وليس من قبيل المستحيل علينا أن نتبع هذه السمات سلفاً .

وفي ظني أن الاشتغال بالأمر العقلية في الشعب الأرستقراطي الذي يعنى بالأدب سيركز في طبقة حاكمة ، شأنه شأن الاشتغال بأمر الحكم . فالحياة الأدبية والاشتغال بالأمر السياسية يكادان يقتصران على هذه الطبقة أو على أولئك الذين هم أقرب الناس إليها ، من حيث مرتبتهم الاجتماعية . وحسبنا هذه المقدمات للباقي كله .

فعدما يشتغل عدد قليل من الناس بأعمال واحدة في وقت واحد ، يسهل عليهم أن يتفاهموا ويتفقوا على أن يضعوا معاً بضعة مبادئ تسرى عليهم فرادى وجماعات . فإن كان

الأدب هو الذى استرعى انتباه هؤلاء الناس فسرعان ما يخضعون إنتاجهم العقلى لوضع قوانين لا يسمح لأحد بالانحراف عنها. وإن كانوا ممن يشغلون مراكز وراثية فى البلاد، مالوا بطبيعة الحال إلى أن يضعوا لأنفسهم بضع قواعد معينة ثابتة فحسب، بل إنهم ليتبعون كذلك القواعد التى سبق أن فرضها أجدادهم على أنفسهم من قبل، وبذلك يصبح تشريعهم صارماً متشدداً من جهة، وتقليداً مأثوراً من جهة أخرى. ولما كانت شئون الحياة المادية لا تشغل بالهم بالضرورة، وهى فى الواقع لم تشغلهم قط كما لم تشغل أجدادهم من قبل - فقد تعلموا من عدة أجيال مضت أن يعنوا بالأمر العقلى وبالإنتاج الفكرى، فعرفوا الأدب من حيث هو فن، ثم أحبوه فى النهاية لذات الأدب نفسه، فتراهم يسرون سرور العارف من كل من يجرى على مبادئه وسنته. وليس هذا كل ما فى الأمر، فالناس الذين أتحدث عنهم هؤلاء نشأوا فى أحضان الرخاء أو الغنى وسيظلون يعمون بهذا أو ذاك طيلة حياتهم. فلا غرو إن نما فيهم ميل لتذوق متع منتقاة خير انتقاء، ومحبة للذات الرفيعة الدقيقة. وزيادة على ذلك، فإنهم لطول عهدهم بالاستمتاع برغد العيش فى كنف الهدوء والسلام، صار فيهم شىء من الرقة، فى كل من القلب والعقل تجعلهم يستبعدون من ملذاتهم كل ما يتسم بالمفاجأة أو بالحدة البالغة، فهم يؤثرون أن يتسلوا على أن تحرك انفعالاتهم وتهاج، كما يعجبهم أن يستثار اهتمامهم، لأن يجرهم شىء عن طبيعة أنفسهم.

ولنفرض الآن أن عدداً كبيراً من المؤلفات الأدبية، كتبها ناس من طراز من وصفنا، أو كتبت من أجلهم، وعندئذ يسهل علينا أن نتصور طرازاً من الأدب كل شىء فيه منظم ومدروس من قبل، فأتفه كتاب إنما يوضع بعناية وإحكام، حتى فى أبسط تفاصيله، ويتجلى فيه أثر الفن والصنعة والكدح واضحاً فى كل ما فيه. فكل نوع من الكتابة له قواعده ونظمه الخاصة به، التى لا يجوز الانحراف عنها، والتى تميزه على كل ما عداه من الأنواع الأخرى، ويكون الأسلوب موضع عناية لاتقل عما يوجه منها إلى الفكرة والمعنى، وتنال الصورة حظها من الاهتمام، شأنها فى ذلك شأن المادة نفسها؛ ويكون أسلوب الكتابة مصقولاً منسجماً، كل شىء فيه بقدر، ويتجلى فيه تفكير الكتاب وقوراً دائماً، ويندر أن يكون عفيفاً، هذا ويتجه الكتاب إلى تجويد ما ينتجونه وإحكامه، أكثر ما يتجهون إلى غزارة الإنتاج. ويحدث فى بعض الأحيان أن يفقد الأدباء وهم يعيشون دائماً فى وسط أمثالمهم، ويكتبون ما يكتبون لأنفسهم وحدهم - أن يفقدوا النظر إلى سائر العالم الذى حولهم، مما يجعل لهم فى كتاباتهم أسلوباً زائفاً متكلفاً، فيضعون قواعد أدبية لاستعمالهم خاصة، مما يؤدي بهم بشكل غير محسوس، إلى أن يجيدوا عن الذوق السليم، وينتفى بهم الأمر إلى تجاوز حدود الطبيعة نفسها من جراء ما يذلونه من جهود شاقة فى جعل أسلوبهم فى التعبير يختلف كل الاختلاف عن الأسلوب الذى يصطنعه الناس، فينتفى بهم الأمر إلى نوع من الرطانة الأرسقراطية تكاد تبعد عن اللغة النقية بقدر ما يبعد أسلوب العامة الحوشى عنها، تلك هى الأخطار الطبيعية التى تحدق بالأدب فى الشعوب

الأرستقراطية، فكل أرستقراطية تنفصل عن الشعب، وتقف بمنأى عنه، تصبح واهنة لاحول لها ولا قوة، وهذه حقيقة تصدق في الأدب كما تصدق في السياسة .

ولنقلب الصفحة الآن وننظر ما في جانبها الآخر، لننتقل إلى صميم ديمقراطية هيأتها تقاليدنا القديمة، وأعادتها ثقافتها الحاضرة، للمشاركة في المتع العقلية . فالطبقات والمراتب تختلط في هذه الديمقراطية بعضها ببعض اختلاطاً يكاد يوحدنا؛ وتكون المعارف والسلطة مقسمة فيها أقساماً لا نهاية لها ولا حد، وإن شئت قلت أنها تصبح معثرة في كل رجا من الأرجاء . فلدينا إذن طراز مختلط، علينا أن نعمل على سد احتياجاته الفكرية، فأنصار المذات العقلية الجدد هؤلاء، لم يتلقوا كلهم تعليماً واحداً؛ فتقافتهم ليست واحدة، ولا هم يشبهون آباءهم في شيء؛ بل إنهم ليختلفون عن أنفسهم اختلافاً مستمراً، لأنهم يعيشون في حالة تتغير معالمها باستمرار من حيث المكان والعواطف والثروة، فعقل كل منهم ليس مرتبطاً إذن بعقول الآخرين بروابط التقاليد أو العادات المشتركة . ولم تكن لهم أبداً القوة، ولا الإرادة، ولا الوقت الكافي ليفاهموا ويعملوا معاً؛ ومع ذلك ينشأ المؤلفون والكتاب من هذه المجموعة المتنافرة المستارة، وهذه المجموعة نفسها هي التي توزع على هؤلاء الكتاب والمؤلفين الأموال والأمجاد .

أستطيع أن أفهم في يسر وسهولة أنه يجب علينا أن نتنظر في مثل هذه الظروف، ألا نصادف في آداب مثل هذا الشعب سوى قليل من القواعد التقليدية الصارمة التي يسلم بها القراء والكتاب في العصور الأرستقراطية، فلو حدث في عصر من هذه العصور اتفاق على بضعة قواعد من هذا القبيل، فهذا الاتفاق لا يعنى شيئاً لأهل العصر الذي يليه؛ لأن كل جيل من الأجيال في الأمم الديمقراطية يعد شعباً جديداً . فالأدب عند أمثال هذه الأمم إذن لا يتيسر إخضاعه لمثل هذه القواعد، وهي قواعد يستحيل أن تكون دائمة .

ليس جميع من يعنون بشئون الأدب في البلاد الديمقراطية ممن تربوا تربية أدبية، ومعظم الذين كانت لديهم مسحة أدبية اشتغلوا إما بالسياسة، وإما بحرفة لا تتيح لهم، إلا أحياناً وخلصاً، أن يستمتعوا بالمذات العقلية . ومن ثم لا يجعلون من هذه المتع الهجة الأساسية في حياتهم بل يعدونها مجرد وسائل للاسترواح العابر، وضرورية لاستجمامهم عقب ما يقومون به من أعمال الحيدة الجدية . فأمثال هؤلاء لا يمكن أن يحصلوا مطلقاً على معرفة واسعة وثيقة بفنون الأدب تمكنهم من أن يقدروا ما فيه من جمال، ولا بد من أن تفوتهم تلك الفروق الدقيقة التي في رشاقة التعبير، ولما كان الوقت الذي يستطيعون أن يخصصوه لشئون الأدب ضئيلاً، فقد عملوا على استغلاله أياً استغلال فصاروا يفضلون من الكتب ما يسهل الحصول عليه، وما يقرأ في يسر وسرعة، وما لا يتطلب فهمه أى بحوث علمية . فهم يطلبون ضروب الجمال الظاهرة التي كأنها تعرض عليهم نفسها بنفسها، والتي يمكنهم أن يستمتعوا بها في يسر، ولا بد لهم، أول كل شيء، من الجديد

غير المشكوك في جدته، وإذ قد اعتادوا الصراع والصدام والتمطية في حياتهم العملية، فهم بحاجة إلى انفعالات سريعة عنيفة، وقطع أدبية واضحة كل الوضوح، وحقائق أو أخطاء باهرة تستثيرهم وتدفعهم في الحال إلى صميم الموضوع، كأنما تدفعهم إليه قوة خارقة .

وماذا الذي يدعوني إلى المزيد من القول، بل ومن ذا الذي لا يدرك ما سيلي من قولي قبل أن أذكره؟ إن الأدب، لا يستطيع أن يقدم لنا في العصور الديمقراطية ما كان يقدمه في العصور الأرستقراطية من صور للنظام، ولا الاتساق، والعلوم، والفنون، بل إن شكل هذا الأدب على العكس يكون موضع استخفاف عادة وأحياناً موضع الاحتقار. وكثيراً ما يكون الأسلوب فيه خاطئاً وثقيلاً وركيكاً، ويكاد أن يكون دائماً عنيفاً وجريئاً. فالمؤلفون يهدفون إلى السرعة في الإنجاز أكثر مما يهدفون إلى الكمال وإحكام التفاصيل. وتكون المؤلفات الصغيرة هي العادة بدلاً من المطولات، ويتجلى فيها عادة الذكاء والقطنة أكثر من العلم والمعرفة. والخيال أكثر من العمق، ويتسم الإنتاج بأمارات تدل على تفكير نشيط قوى، ولكنه تفكير لم يدرّب، وكثيراً ما يكون منوعاً كل التنوع وخصباً كل الخصوبة، ويقصد الكتاب إلى استثارة الدهشة في الناس، أكثر مما يهدفون إلى إدخال السرور على نفوسهم، وإلى تحقيق الاستثارة بدلاً من أن يرضوا الأذواق الرفيعة .

ولا شك في أن كتاباً يسلكون طريقاً آخر غير هذا الطريق؛ سيظهرون الفينة بعد الفينة في تلك البلاد، فإن كانوا موهوبين فسيجدون لهم قراء على الرغم مما فيهم من نقائص ومن عيوب أو من قدرات طبيعية، ولكن هؤلاء الكتاب شواذ، وهم قلة عادة، وحتى إن كان المؤلفون الذين يشذون عن المؤلف في العصر، في موضوع كتبهم الرئيسي، فإنهم سينكصون دائماً ويعودون إليه في بعض التفاصيل الصغيرة .

هأنذا قد فرغت توأ من تصوير حالتين متطرفتين، ولكن الأمم لا تنتقل طفرة واحدة من الحالة الأولى إلى الثانية، فهي لا تصل إليها إلا على مراحل عدة، وتتدرج طويل. ففي أثناء انتقال أمة متعلمة من حالة منهما إلى أخرى يغلب أن يجيء وقت تلتقي فيه عبقرية الأمم الديمقراطية بعبقرية الأمم الأرستقراطية، فيبدو أن كل أمة منهما تسعى وراء الاتفاق مع الأخرى على فرض سلطانها على العقل البشري، ولكن هذه الأوقات وأمانها عابرة زائلة، ومع ذلك فهي رائعة كل الروعة، وخصبة في غير إسراف، وحية نشيطة في غير اضطراب. فالأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر يصلح أن يكون مثلاً على ذلك .

فلو أني قلت أن أدب الأمة يخضع دائماً لأحوالها الاجتماعية ولنظامها السياسي لكنت قد قلت أكثر مما أعني، فلا يغرب عني أن ثمة أسباباً أخرى غير هذه الأسباب تضي على المؤلفات الأدبية ميزات رئيسية، ولكن ما ذكرته من هذه الأسباب يعد أهمها، فالعلاقات بين حالة الشعب الاجتماعية وحالته السياسية، وبين عبقرية مؤلفيه، كثيرة دائماً حتى أن من يعرف إحداها لا يجهد الأخرى جهلاً تاماً .

## الفصل الرابع عشر

### حرفة الأدب

لا تخلق الديمقراطية في طبقات التجار والصناع ميلاً إلى الأدب فحسب، بل إنها لتدخل فيه روح التجارة .

فليس عدد القراء في البلاد الأرستقراطية بالكبير، وإرضائهم من أصعب الأمور، على حين أن عددهم في البلاد الديمقراطية أكبر، وإرضائهم أهون وأيسر، ومن ثم لا يأمل أحد في البلاد الأرستقراطية أن ينجح من غير بذل جهود جارية تؤدي إلى الشهرة المستفيضة، وإن كانت شهرة لا تدر عليه مالاً وفيراً، أما في البلاد الديمقراطية فقد يجدهم الكاتب نفسه ويمينا بالحصول على شيء من الشهرة، بقليل من الجهد والمال لا يكلفه غير ثمن قليل، وبالحصول على ثروة ضخمة، وهذا لم يكن بحاجة إلى إعجاب الناس به وحسن تقديرهم له، بل حسبه منهم أنهم يحبونه ويقبلون على شراء كبه .

فازدياد عدد القراء المستمر، وتلهفهم على الجديد باستمرار يكفل رواج الكتب التي تصدر ولا يقدرها أحد قدرأ كبيراً .

فكثيراً ما كان الجمهور يعامل المؤلفين في العصور الديمقراطية على نحو ما يعامل الملوك رجال حاشيتهم؛ فقد كانوا يقدقون عليهم الأموال، ويحترقونهم في الوقت نفسه: فما عسى أن يتطلب أولئك الأشخاص الذين يبيعون أنفسهم بالمال، والذين ولدوا وعاشوا في بلاطات الملوك، أو الجديرون بأن يعيشوا فيها ؟

إن الأدب الديمقراطي حافل دائماً بفئات من أمثال هؤلاء الكتاب الذين لا يرون في الأدب سوى أنه حرفة. ومن أجل هذا صرنا نجد إلى جانب عدد صغير من كبار الكتاب والمؤلفين الذين يزدان بهم جيد الأدب آلافاً من تجار الأفكار وباعة الألفاظ .

## الفصل الخامس عشر

# دراسة الآداب الإغريقية واللاتينية تفيد الجماعات الديمقراطية بوجه خاص

كان مدلول لفظ « الشعب » عند معظم الجمهوريات القديمة وأكثرها إغراقاً في الديمقراطية، مختلفاً كل الاختلاف عما نقصده نحن الآن بهذه اللفظة عنها، ففي أثينا كان جميع المواطنين يشاركون في الشؤون العامة، ولكن لم يكن فيها، مع ذلك، من المواطنين سوى عشرين ألفاً من الثلاثمائة والخمسين ألف ساكن؛ أما الباقون فكانوا أرقاء يقومون بالجزء الأكبر من الأعمال التي تؤديها في عصرنا الحاضر الطبقات الدنيا من الشعب، والطبقات الوسطى في بعض الأحيان، فأثينا، على الرغم من وجود الانتخاب العام، ليست، بعد كل شيء، سوى جمهورية أرستقراطية، فلكل النبلاء فيها حق المشاركة في الحكم .

هذا ويجب أن ننظر إلى ذلك الصراع الذي نشب في روما بين البطارقة والدهماء على هذا الضوء نفسه، فهو لا يعدو أن يكون صراعاً صغيراً بين فرعي أسرة واحدة، الفرع الأكبر والفرع الأصغر . فكل أعضائها ينتمون في الواقع إلى الأرستقراطية وكلهم متشعب بروحها .

وزيادة على ذلك، يجب ألا يغرب عنا أن الكتب نادرة عند الأقدمين دائماً، وغالية الثمن، وأن عقبات كثيرة قامت في سبيل نشرها وتداولها، مما أدى إلى تركيز الميل الأدبي، والعادات، في نفر قليل من الناس تكونت منهم أرستقراطية صغيرة مختارة من صفوة الأرستقراطيين السياسية الكبيرة . ومن ثم لم يكن شيء قط عند اليونان أو عند الرومان يدل على أن الأدب كان حرفة .

فهذه الشعوب، وهي جماعات ليست بالأرستقراطية فحسب، بل أمم مهذبة كل التهذيب، وحررة كل الحرية، قد أفاضت بالطبع على الأعمال الأدبية جميع الرذائل والחסن التي تتميز بها آداب العصور الأرستقراطية عادة، وحسبنا لحة خاطفة نلقيا على ما خلفه لنا القدامى من مؤلفات لندرك أن هؤلاء الكتاب، إن كان ينقصهم أحياناً التنوع والعمق في موضوعاتهم، أو تعوزهم الجرأة والحيوية والتعميم في أفكارهم، فقد كانوا دائماً

يبدون فناً رائعاً، ويحرصون على مراعاة الدقة فيما يذكرونه من تفصيلات.. فلا شيء في مؤلفاتهم يظهر عليه أنه تم في عجلة أو مصادفة، بل كان كل سطر يكتب ليعرض على نظر الناقد الخبير، وعلى أساس فكرة من الجمال المثالي، فليس ثمة أدب يبرز هذه الصفات الرفيعة، التي تعزز بالطبع الكتاب في البلاد الديمقراطية بمثل ما يبرزها الأدب القديم، ومن ثم وجب أن نتوفر على دراسات الأدب في العصور الديمقراطية أكثر مما يدرس أى أدب آخر، فهي أفضل من غيرها لمقاومة النقائص الأدبية الذاتية في تلك العصور، أما من حيث صفاتها الأدبية الطبيعية فإنها ستبقى تلقائياً من غير أن يكون ثمة ضرورة ماسة إلى تعلمها.

ومن الخير أن نفهم هذه النقطة حق الفهم، فقد تكون دراسة معينة مفيدة لأدب شعب معين، من غير أن تكون ملائمة لاحتياجاته الاجتماعية والسياسية، فإن أصر الناس على ألا يتعلموا أبداً ما غير أدب اللغات الميتة في مجتمع يطلب فيه من كل امرئ أن يبذل جهوداً عيفة لزيادة ثروته أو للاحتفاظ بها، كانت النتيجة قيام صف من المواطنين مهذبين كل التهذيب، وخطرين كل الخطر، فإذا كانت الأحوال الاجتماعية والسياسية تتيح لهم كل يوم الشعور باحتياجات جديدة، فإنهم لاشك سيعكرون صفو الدولة باسم الإغريق والرومان، بدلاً من أن يعملوا على ازدهارها بقيامهم بأعمال صناعية أو تجارية منتجة.

فلا يخفى أن مصلحة الفرد، وسلامة البلاد، تتطلبان أن تكون تربية العدد الأكبر من المواطنين في البلاد الديمقراطية تربية علمية، تجارية وصناعية، أكثر منها أدبية. فيجب ألا تدرس اللغتان اللاتينية والإغريقية في جميع المدارس، ومع ذلك فمن الأهمية بمكان أن يجد الناس الذين يؤهلهم طبيعهم، أو تؤهلهم ثروتهم، لدراسة الأدب، أو الذين يرون في أنفسهم الاستعداد لتدوقه - فهؤلاء يجب أن يجدوا المدارس التي تزودهم بمعرفة كاملة بالآداب القديمة - مدارس يمكن أن يتخرج فيها العالم الحقيقي. فبضع جامعات طيبة تعاون على تحقيق هذا الغرض خير من كثير من المدارس الثانوية الرديئة التي تدرس فيها مواد ثانوية لا لزوم لها، بشكل سيء، تعوق تدريس المواد الضرورية، التدريس الصحيح الناجع.

فعل من يطمحون إلى التفوق في دراسة الآداب في البلاد الديمقراطية أن ينهلوا من منابع الأدب القديم، فليس ثمة شيء أصلح للعقل منه. وليس معنى ذلك أنى أرى إنتاج القدامى الأدنى كاملاً لا عيب فيه، بل كل ما أريد أن أقوله أن لهذا الأدب فضائل ومميزات خاصة تعاون كل العون على مقاومة ما فينا من نقائص معينة مقاومة ناجعة؛ فهو دعامة تسندنا من الجانب الذى نخشى كل الحشية أن نسقط فيه.

## الفصل السادس عشر

### أثر الديمقراطية الأمريكية في اللغة الإنجليزية

لو أن القارئ فهم ما سبق أن قلته في موضوع الأدب بوجه عام حق الفهم، لما وجد أية مشقة في إدراك نوع التأثير الذي يمكن أن تخلقه الأحوال الاجتماعية الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية، في اللغة نفسها، فاللغة كما لا يخفى، أداة الفكر الرئيسية .

ولا نعدو الصواب إن قلنا أن المؤلفين الأمريكيين يعيشون في إنجلترا أكثر مما يعيشون في بلادهم، ماداموا يدرسون باستمرار مؤلفات الكتاب الإنجليزي، ويتخذونها نماذج لهم يتخذونها باستمرار كذلك . ولكن هذا القول لا يصدق على جبهة الشعب نفسه، لأنه معرض مباشرة للعوامل الخاصة المؤثرة في الولايات المتحدة، فيجب أن نوجه اهتمامنا هنا إذن إلى اللغة المنطوقة، لا إلى اللغة المكتوبة، إن أردنا أن نقف على التغييرات التي تطرأ على لهجة شعب أرسطراطي بعد أن تصبح لغته لغة ديمقراطية .

أكد لي كثيرون من الإنجليز المتعلمين، وأكد لي من هم أقدر مني على الحكم على تلك الفروق الدقيقة في أساليب التعبير - أكدوا لي أن لغة الطبقات المستترة في الولايات المتحدة تختلف اختلافاً بينا عن لغة الطبقات المتعلمة في بريطانيا، فهم لا يشكون من أن الأمريكيين أذاعوا طائفة من الألفاظ الجديدة فحسب، (فالفرق بين البلدين وبعد الشقة بينهما يكفیان لتعليل ذلك) بل يشكون أيضاً من أن هذه الألفاظ الجديدة قد استمدت بوجه خاص من رطانة الأحزاب أو من مصطلحات الفنون الميكانيكية، أو من الصناعة والتجارة. وزيادة على ذلك، أكدوا لي أن الأمريكيين كثيراً ما يستعملون الألفاظ الإنجليزية القديمة في معان ومناسبات جديدة، وأخيراً يقولون أن سكان الولايات المتحدة كثيراً ما يمزجون العبارات بعضها ببعض مزجاً غريباً، ويضعون في بعض الأحيان ألفاظاً يحرص الإنجليز على استبقائها مفصولة. فهذه الملاحظات التي أبداها لي مراراً متعددة أشخاص أراهم جديرين بالثقة هي التي دفعتني إلى التفكير في هذا الموضوع، فأدّى بي تفكيري، عن طريق الاستدلال النظري، إلى النقطة التي وصل إليها من أخبروني بها عن طريق الخبرة العملية .

لامندوحة للغة من التأثير بحالة الاستقرار الغالبة على كل شيء في البلاد

الأرستقراطية، فلا وضع فيها سوى القليل من الألفاظ الجدد لأنه لا يعمل فيها سوى القليل من الأشياء الجديدة، وحتى إن حدثت و عملت أشياء جديدة فإنهم يعبرون عنها بألفاظ معهودة لهم سبق أن حددت الرواية والتقاليد معانيها . فإن نشط العقل البشرى، بأخرة، من تلقاء نفسه، أو حدث أن أيقظته أضواء نفذت إليه من الخارج، اصطفت الألفاظ الجدد التي يضعونها بصيغة أكاديمية فلسفية أو عقلية تنم عن أنها لم تنشأ في بلاد ديمقراطية، فعندما اتجهت الآداب والعلوم صوب الغرب بعد سقوط القسطنطينية، غزت اللغة الفرنسية طائفة من الألفاظ المستحدثة اخترت أصولها من اللغتين اللاتينية والإغريقية، وبذلك نشأت في فرنسا صيغ لغوية جدد لها طابع المعرفة الواسعة اقتصر استعمالها على الطبقات المتعلمة، ولم تؤثر تأثيراً محسوساً في لغة الشعب، وإنما كان تأثيرها فيها تدريجياً .

وقد حدث مثل هذا التغيير نفسه في جميع الدول الأوربية، الواحدة بعد الأخرى، فقد أدخل ملتين وحده أكثر من ستائة كلمة جديدة في اللغة الإنجليزية استمدتها كلها أو جلها من اللغات القديمة الإغريقية واللاتينية، والعبرية، فالحركة المستمرة التي تسود البلاد الديمقراطية تتجه باستمرار، على العكس من ذلك، إلى تغيير سمات اللغة، كما اتجهت إلى تغيير سمات الأعمال من صناعية وتجارية، ففي وسط هذه الحركة العامة، ووسط تنافس العقول تنشأ آراء كثيرة جديدة، وتزول أخرى قديمة، أو تعود إلى الظهور بعد أن قد هجرت، أو تنقسم أقساماً لاحتصى، بينها ظلال ضئيلة من الفروق، مما يترتب عليه ضرورة إهمال طائفة من الألفاظ وإدخال أخرى غيرها واستعمالها .

وزيادة على ذلك فالأمم الديمقراطية تحب التغيير لذات التغيير، ويتجلى أثر ذلك في سياستها، وحتى عندما لا يكون الناس بحاجة إلى تغيير الألفاظ فإنهم قد يشعرون بالرغبة في هذا التغيير .

إن عبقرية الأمم الديمقراطية هنا، لا تتجلى في العدد الكبير من الألفاظ الجدد التي يستخدمها الناس فحسب، بل تتجلى كذلك في طبيعة الأفكار ذاتها التي تمثلها هذه الألفاظ . فالأغلبية في مثل هذا الشعب هي التي تفرض قوانين اللغة، كما تفرضها في أى شيء آخر؛ فروحها السائدة تتجلى في هذا الأمر كما تتجلى في كل شيء غيره، ولكن الجماهرة الكبرى من الناس مشغولون بالشئون العملية أكثر من انشغالهم بالدرس والبحث، وبالمصالح السياسية والتجارية، منهم بالتأمل الفلسفى والدراسات الأدبية المنوعة . فمعظم ما يوضع لها من ألفاظ أو يختار . يبتذل يحمل طابع الأعمال، وأهواء الأحزاب، وتفصيلات الإدارة العامة، وتظل اللغة تنمو باستمرار في هذه النواحي على حين تضعف تدريجياً في الميتافيزيقا واللاهوت .

أما من حيث المصادر التي اعتادت الأمم الديمقراطية أن تستمد منها العبارات الجدد، وأما من حيث الطريقة التي يصوغونها بها، فكلاهما سهل شرحه، فسكان البلاد

## أثر الديمقراطية الأمريكية في اللغة الإنجليزية

لو أن القارئ فهم ما سبق أن قلته في موضوع الأدب بوجه عام حق الفهم، لما وجد أية مشقة في إدراك نوع التأثير الذي يمكن أن تخلقه الأحوال الاجتماعية الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية، في اللغة نفسها، فاللغة كما لا يخفى، أداة الفكر الرئيسية .

ولا نعدو الصواب إن قلنا أن المؤلفين الأمريكيين يعيشون في إنجلترا أكثر مما يعيشون في بلادهم، ماداموا يدرسون باستمرار مؤلفات الكتاب الإنجليزي، ويتخذونها نماذج لهم يتخذونها باستمرار كذلك . ولكن هذا القول لا يصدق على جبهة الشعب نفسه، لأنه معرض مباشرة للعوامل الخاصة المؤثرة في الولايات المتحدة، فيجب أن نوجه اهتمامنا هنا إذن إلى اللغة المنطوقة، لا إلى اللغة المكتوبة، إن أردنا أن نقف على التغييرات التي تطرأ على لهجة شعب أرسقراطي بعد أن تصبح لغته لغة ديمقراطية .

أكد لي كثيرون من الإنجليز المعلمين، وأكد لي من هم أقدر مني على الحكم على تلك الفروق الدقيقة في أساليب التعبير - أكدوا لي أن لغة الطبقات المستنيرة في الولايات المتحدة تختلف اختلافاً بينا عن لغة الطبقات المتعلمة في بريطانيا، فهم لا يشكون من أن الأمريكيين أذاعوا طائفة من الألفاظ الجديدة فحسب، (فالفرق بين البلدين وبعد الشقة بينهما يكفیان لتعليل ذلك) بل يشكون أيضاً من أن هذه الألفاظ الجديدة قد استمدت بوجه خاص من رطانة الأحزاب أو من مصطلحات الفنون الميكانيكية، أو من الصناعة والتجارة. وزيادة على ذلك، أكدوا لي أن الأمريكيين كثيراً ما يستعملون الألفاظ الإنجليزية القديمة في معان ومناسبات جديدة، وأخيراً يقولون أن سكان الولايات المتحدة كثيراً ما يمزجون العبارات بعضها ببعض مزجاً غريباً، ويضعون في بعض الأحيان ألفاظاً يحرص الإنجليز على استبقائها مفصولة . فهذه الملاحظات التي أبدتها لي مرات متعددة أشخاص أراهم جديرين بالثقة هي التي دفعتني إلى التفكير في هذا الموضوع، فأدنى لي تفكيري، عن طريق الاستدلال النظري، إلى النقطة التي وصل إليها من أخبروني بها عن طريق الخبرة العملية .

لامندوحة للغة من التأثير بحالة الاستقرار الغالبة على كل شيء في البلاد

## المؤسسات الجمهورية في الولايات المتحدة وما أمامها من فرص للبقاء

الاتحاد حادث عارض - والمؤسسات الجمهورية أبقي منه وأدوم - الجمهورية هي حتى الآن حالة الأمريكيين الإنجليز الطيبة - القضاء عليها يقتضى تغيير القوانين كلها في وقت واحد، وإحداث تغيير عظيم في أخلاق الناس وعاداتهم كلها - العقبات التي تقوم في سبيل الأمريكيين إن هم حاولوا إقامة أرستقراطية بينهم .

إن تفكك أو اضرار الاتحاد الذي ينجم عن قيام الحروب في قلب الولايات « المتحالفة » الآن، وما يترتب على ذلك من إدخال نظم الجيوش القائمة، وإقامة ديكتاتورية غشوم، وفرض ضرائب باهظة، قد يؤدي في النهاية إلى الإضرار بمصير المؤسسات الجمهورية . ولكن يجب ألا نخلط بين ما ينتظر الجمهورية في المستقبل، وبين ما ينتظر الاتحاد . فالإتحاد أمر عارض لا يدوم إلا ما بقيت الظروف والأحوال مواتية له، على حين أن الشكل الجمهورى يبدو لى أنه الحالة الطبيعية عند الأمريكيين . وليس يستطيع شيء أن يحولها إلى ملكية سوى أسباب معادية تعمل باستمرار في اتجاه واحد بعينه . فالإتحاد موجود أساساً في القانون الذى خلفه . فتورة واحدة، أو تغيير واحد في الرأى العام، قد يكفى للقضاء عليه إلى الأبد، ولكن الجمهورية تقوم على أساس أوطد من ذلك وأعمق .

إن ما يفهمونه في الولايات المتحدة من الحكومة الجمهورية لا يعدو تأثير المجتمع في نفسه تأثيراً بطيئاً هادئاً . فالحكومة الجمهورية في نظرهم حالة اجتماعية منتظمة تقوم أساساً على إرادة الشعب المستتيرة . فهي حكومة مسالمة، يترك فيها للقرارات وقت كاف لتختمر وتناقش، ولا تنفذ إلا بعد أن ينضج الرأى فيها تمام النضج .. هذا، ويعمل الجمهوريون في الولايات المتحدة من قيمة الأمور الأخلاقية، ويحترمون المعتقدات الدينية، ويعترفون بالحقوق، ويرون أن الشعب يجب أن يكون أخلاقياً، متديناً، معتدلاً، عفيفاً، بقدر ما يجب أن يكون حراً . وليس ما يسمونه « بالجمهورية » في الولايات المتحدة، سوى حكم الأغلبية الهادىء الذى يعدونه المصدر العام الذى تستمد منه الدولة كل سلطاتها . وهو لم يصبح كذلك إلا بعد أن استغرق الوقت الكافى في فحص نفسه، وأثبت وجوده فعلاً . ولكن قوة الأغلبية هذه ليست بالقوة المطلقة غير المحدودة، ففوقها، من الناحية الأخلاقية، الإنسانية والعدالة والعقل؛ وفوقها، من الناحية السياسية، حقوق مقررّة . هذا وتسلم الأغلبية بوجود هذين الحدين الحاجزين، فإن حدث وتحدتهما أحياناً، فما ذلك إلا أنها لها أهواؤها، شأنها شأن الأفراد؛ وهى معرضة مثلهم، لأن تقع في الخطأ، وإن كانت تعرف ما هو صواب وحق .

ولكن الخطباء الشعبيين في أوروبا قد توصلوا إلى كشوف عجيبة ! فليست الديمقراطية في نظرهم حكم الأغلبية، كما ظل الناس يعتقدون إلى الآن، بل هى حكم أولئك

فإنهم يحملون معهم الألفاظ والعبارات التي سبق لهم أن ألفوها إلى أية حالة يوجدون فيها ، وبذلك تضع أصول الألفاظ بطبيعة الحال ، كما ضاعت من قبل أصول الأفراد ، وساد الاضطراب اللغة كما ساد المجتمع .

لا يعزب عنى أن لتصنيف الألفاظ قواعد ليست مما يختص به شكل من أشكال المجتمع دون آخر ، ولكنها قواعد اشتقت من طبيعة الأشياء . فثم عبارات حوشية مستهجنة لأن المعاني التي تتضمنها وتعبر عنها وضيعة في ذاتها ؛ ثم أخرى ذات صبغة أسمى ، لأن ما تمثله من المعاني نبيل بطبيعته ، ومهما اختلطت طبقات الناس ودرجاتهم بعضها ببعض ، فلن يحو اختلاطهم هذا ما بين هذه الألفاظ من فروق ؛ ولكن مبدأ المساواة لا بد أن يؤدي إلى هدم كل ما هو تقليدي محض ، وتحكمي محض ، في أشكال التفكير ، ولعل نصيب ذلك التصنيف الضروري الذي لاغنى عنه ، والذي أشرت إليه توأ ، من احترام عند الشعب الديمقراطي ، أقل من نصيبه عند أي شعب آخر ، فليس في مثل هذا الشعب أناس جعلتهم الترية والثقافة وما ينعمون به من فراغ ، يميلون ميلاً دائماً إلى دراسة قوانين اللغات الطبيعية ، ويجعلون هذه القوانين موضع احترام ، بأن يراعوها هم أنفسهم .

وقبل أن أترك هذا الموضوع ، أرى لزاماً عليّ أن أشير إلى ناحية من نواحي اللغات الديمقراطية ، فربما كانت هي الناحية التي تميزها أكثر من غيرها ، فقد سبق أن بينت أن الأمم الديمقراطية تميل إلى تكوين المعاني العامة والمدرجات الكلية ، بل إنها كثيراً ما تتحمس لها كل التحمس ؛ ويرجع ذلك إلى طبيعة ما بها من محاسن ونقائص . فالغرام بالمعاني العامة هذا ، يتجلى في اللغات الديمقراطية في كثرة استعمال أسماء الجنس ، أو الألفاظ المجردة ، وبالطريقة التي تسلكها في استعمالها - فهذا هو أكبر فضل لهذه اللغات ، وهو أكبر عيوبها كذلك .

ويرجع غرام الشعوب الديمقراطية باستخدام أسماء الجنس والعبارات المجردة إلى أن طرق التعبير هذه توسع الفكر ، وتعاون العقل على أداء عمله لأنها تشمل أشياء كثيرة في حيز صغير . فالكتاب الديمقراطي يستعمل بارتياح وبشكل مجرد لفظ (الكفايات) capacities بدلاً من «الرجال الأكفاء» وذوى الكفايات ، ومن غير أن يعين الأشياء التي تصدق عليها هذه الكفاية ؛ ويتحدث عن actualities ليعبر بكلمة واحدة عن الأحداث التي تجرى في اللحظة التي هو فيها تحت سمعه وبصره ، ويضمن لفظة éventualités كل ما يمكن أن يحدث في العالم منذ اللحظة التي يتحدث فيها . ويضع الكتاب الديمقراطيون باستمرار ألفاظاً مجردة من هذا القبيل ، أو هم يستعملون ما في لغتهم من أسماء المعاني بشكل أكثر إمعاناً في التجويد ، وأكثر من ذلك ، فإنهم كي يجعلوا كلامهم أوجز ، عمدوا إلى تشخيص مدلولات هذه الألفاظ بأن جعلوها تعمل كما لو كانت أشخاصاً حية ، فيقولون مثلاً بالفرنسية :

La force des choses veut que les capacités gouvernent.

وخير طريقة أستطيع أن أوضح بها ما أقصد إليه أن أضرب مثلاً بنفسى، فأنا كثيراً ما استعملت لفظ المساواة بمعنى مطلق، بل كثيراً ما شخصت «المساواة» في عدة مواضع فأرأى قلت: إن المساواة تفعل كذا وكذا أو إنها تتحاشى فعل كذا وكذا. ونستطيع أن نؤكد أن الكتاب في عصر لويس الرابع عشر ما كانوا ليتكلموا بهذا الأسلوب إذ لم يكن يخطر ببالهم قط أن يستعملوا لفظة المساواة في غير شيء جزئى معين. وإنيهم ليؤثرون أن يتحاشوا استعمال مثل هذه اللفظة مطلقاً على أن يجعلوا لها شخصية حية.

فهذه الألفاظ المجردة التي تحفل بها اللغات الديمقراطية والتي يكثر أهل البلاد الديمقراطية استخدامها في كل مقام دون أن يربطوها بأية حقيقة جزئية، توسع الأفكار المراد التعبير عنها، وإن كانت تجعلها غامضة غير محددة. فهي تجعل التعبير موجزاً حقاً ولكنها تجعل المعنى أقل وضوحاً. ولكن الشعوب الديمقراطية تؤثر، من حيث اللغة، الغموض على تجشم مشقة العمل والكدح لإيضاح ما يقصدون.

لست أدري حقاً إن كان لهذا الأسلوب الركيك روعة خفية تفتن الكتاب والخطباء في هذه البلاد الديمقراطية، وإذ كان الذين يعيشون في هذه البلاد كثيراً ما يكون اعتماد كل منهم على مجهود عقله الفردى وحده، فقد صاروا معرضين دائماً تقريباً لأن تساورهم الريب والشكوك؛ وزيادة على ذلك، فإذا كانت مراكزهم تتغير باستمرار صاروا لا يستطيعون أبداً أن يستمسكوا بأى رأى من آرائهم على الرغم من ثبات حظوظهم واستقرارها، ومن ثم كانت آراء الناس الذين يعيشون في البلاد الديمقراطية كثيراً ما تكون قلقلة متأرجحة، ولا غرو أن صاروا بحاجة إلى تعبيرات سهلة فضفاضة كى تشمل تلك المعانى. وإذ لا يدرون أبداً إن كانت الفكرة التي يعبرون عنها اليوم تلائم الموقف الجديد الذى سيصادفهم غداً، اكتسبوا بطبيعة الحال ميلاً إلى الألفاظ المجردة. فاللفظ المجرد أو اسم المعنى، أشبه شيء بصندوق ذى قاع كاذب، تستطيع أن تضع فيه أى معان تشاء ثم تعود وتستردها منه، وأنت بمأمن من أن يشاهدك أحد.

تعد أسماء الجنس والكليات والألفاظ الدالة على المعانى المجردة أساس اللغة عند كل الأمم، فلست أدعى أن هذه الألفاظ لا توجد إلا في لغات البلاد الديمقراطية، بل كل ما أريد أن أقوله أن الناس في العصور الديمقراطية يميلون بصفة خاصة إلى الاستكثار منها، وإنيهم يستعملونها دائماً ببدلولاتها المفرقة في التجريد، ويستخدمونها في كل موضع، حتى حيث لا يقتضيا المقام.

## الفصل السابع عشر

### بعض مصادر الشعر في الأمم الديمقراطية

لفظة الشعر لها عدة معان مختلفة كل الاختلاف؛ فلو أتى درست مع القراء الأسباب التي تدعو إلى تفضيل المعنى الذي ينبغي أن يختار من بين هذه المعاني لأثقلت عليهم وأملتهم، ولذلك آثرت أن أبادر بأن أذكر لهم على الفور المعنى الذي اخترته، فالشعر في رأيي، هو البحث عن المثالي وتصويره للناس.

فالشاعر هو الذي يتم عمل الطبيعة ويوسعه، بأن يحذف من الصور التي يرسمها بعضاً مما هو موجود في الواقع، ويضيف إليها بعضاً آخر من ولائد خياله؛ وبأن يجمع فيها بين عدة ظروف معينة حقيقية، ولكنها لا تحدث في الواقع مجتمعة، فليس هدف الشعر إذن تمثيل ما هو حقيقي، بل هدفه أن يجمل ذلك الحقيقي، ويقدم للعقل صورة أسبى منه، فالنظم من حيث هو جمال اللغة المثالي، يعد في نظري إذن شعراً حقيقياً، أما النظم نفسه من حيث هو نظم، فليس بشعر.

ولبحث الآن عما إذا كان بين أفعال الأمم الديمقراطية وعواطفها وآرائها ما قد يؤدي إلى تكون فكرة ما عن المثالي، ويصح أن يعد لهذا السبب، مصادر طبيعية من مصادر الشعر.

ويجب أن نعترف أولاً بأن النزعة إلى الجمال المثالي، واللذة المستمدة من مشاهدة التعبير عنه، لا تكونان أبداً شديتين ولا منتشرتين في الأمة الديمقراطية بمثل انتشارهما وشدهما في الشعب الأرستقراطي. فقد يحدث في الأمم الأرستقراطية أن يدو الجسم، وكأنه يعمل من تلقاء نفسه؛ على حين تكون قدرات العقل السامية في محول. فمن بين هذه الأمم الأرستقراطية كثيراً ما يبدي الشعب نفسه ميولاً شعرية، فيخلق بخياله في بعض الأحيان فوق ما يحيط به في بيئته أو يمضى به إلى ما وراءها.

أما في البلاد الديمقراطية، فمحنة المتعة الحسية، وميل الناس إلى العمل على تحسين أحوالهم الاجتماعية، والمنافسة، ونشوة النجاح المنتظر، كلها حوافز عدة تدفع الناس جميعاً إلى المضى قدماً في المهن التي اختاروا أن يعملوا فيها، وما عادوا يستطيعون أن يتحرفوا عنها لحظة ما، فلا غرو أن اتجهت جهودهم العقلية الأساسية هذا الاتجاه؛ إن خيالهم

لم يخدم، ولكن وظيفته الأساسية اتجهت إلى تصور النافع والواقعي، واقتصرت عليهما وحدهما. فمبدأ المساواة لا يبعد الناس إذن عن وصف الجمال المثالي فحسب، بل ينقص عدد الموضوعات والأشياء التي يمكن أن توصف .

أما المجتمعات الأرستقراطية فقد صارت، باستبقائها المجتمع ثابتاً لا يتحرك، تعاون على بقاء الأديان الإيجابية قوية ثابتة، كما تعاون على استقرار المؤسسات السياسية، فهي لا تستبقى العقل البشري ثابتاً في دائرة اعتقاد معينة فحسب، بل توجهه إلى إثارة اعتقاد على آخر. وسيظل الشعب الأرستقراطي يميل دائماً إلى إقامة «قوى» وسطى بين الله والناس، ولا بأس من القول بأن العنصر الأرستقراطي يناصر الشعر ويلتزمه من هذه الناحية، فعندما يمتلئ الكون بكائنات مما فوق الطبيعة لا تدركها الحواس، وإنما يدركها العقل وحده، ينطلق الخيال حراً يهيم أفي شاء؛ ويجد الشعراء أمامهم آفاقاً من الموضوعات يصورونها، كما يجدون جمهوراً كبيراً من الناس يهتم بما ينتجونه من قطع فنية .

وعلى النقيض من ذلك، قد يحدث في العصور الديمقراطية أن تظل المعتقدات الدينية قلقة مضطربة كاضطراب قوانين البلاد فيها؛ وعندئذ يعود التشكك فيبط بخيال الشعراء من السماء إلى الأرض، ويقصر جهودهم على عالم الحس والواقع، وحتى إن كان مبدأ المساواة لا يززع المعتقدات الدينية، فإنه يؤدي إلى تبسيطها، وإلى إبعاد الناس عن الانشغال بالأولياء والقديسين، ويوجه الانتباه إلى الله وحده .

تدفع الأرستقراطية العقل البشري إلى التأمل في الماضي وتركيزه فيه، على حين تعمل الديمقراطية على العكس من ذلك، فبعثت في الناس شيئاً يشبه النور القطري من كل قديم. فالأرستقراطية تعد، من هذه الوجهة أكثر رعاية للشعر، فالأشياء تتضخم وتزداد غموضاً كلما غرقت في بعدها عنا، فهي، من أجل هذا السبب المزدوج، أغون على تصوير الجمال المثالي .

وهكذا يحرم مبدأ المساواة الشعر من الاهتمام بجزء من الحاضر، كما حرمه من الماضي، ففي الأمم الأرستقراطية عدد من الشخصيات المتأززة الذين يدون في أحوال كأنها خارج أحوال البشر، أو فوقها بمراحل، فتبدو لهم السلطة والثروة والشهرة والمجد والفتنة والتهديب، والتميز في كل شيء - أموراً من نصيبهم هم خاصة، فالجمهور لا يراهم أبداً من كتب، أو أنه لا يتابعهم أبداً في شئون حياتهم التفصيلية، فلا يقتضى الأمر إذن كثيراً من الجهد ليكون وصف هؤلاء الناس موضوعاً صالحاً للشعر. ومن جهة أخرى، نجد بين هذا الشعب نفسه طبقات من الناس بلغوا من الجهل والضعف والعبودية مبلغاً كبيراً يجعلها، هي الأخرى، صالحة لأن تكون موضوعاً للشعر، لفرط ما بها من خشونة ومن بؤس، كما صلحت له الفئة الأولى بفضل ما بها من تهذيب ومن عظمة. هذا ولما كانت الطبقات المختلفة التي تتكون منها الأمم الأرستقراطية منفصلة بعضها عن بعض انفصلاً كبيراً؛ فهي

لا تعرف بعضها بعضاً إلا معرفة ضئيلة . ومن ثم كان الخيال يستطيع دائماً عند تصورهم ، أن يضيف أشياء إلى الصورة التي هم عليها في الواقع ، أو ينقص منها .

وفي البلاد الديمقراطية ، حيث الناس توافه كلهم ، لا خطر لهم<sup>(١)</sup> . ومتشابهون كل التشابه ؛ فحسب الواحد منهم أن يتأمل نفسه فيرى إخوانه جميعاً ، فالشعراء في البلاد الديمقراطية لا يستطيعون أبداً أن يتخذوا فرداً معيناً موضوعاً لقصيدة أو مسرحية ، لأن الشيء التافه الذي يتسنى مشاهدته بوضوح من جميع جوانبه ، لا يصلح أبداً موضوعاً للتصور المثالي .

وهكذا ينضب مبدأ المساواة معظم مصادر الشعر القديمة ، كلما رسخت قواعده وتوطدت ، ولنحاول الآن أن نعرف المصادر الجديدة التي قد يكشف لنا عنها هذا المبدأ .

فبعد أن أخلى التشكك السموات من قطانها ، وهبط تقدم مبدأ المساواة بكل فرد إلى نسب صغيرة معروفة تمام المعرفة ؛ وقبل أن يتفطن الشعراء إلى ما ينبغي لهم أن يحلوه محل الموضوعات الكبرى التي أخذت تزول بزوال الأرسطراطية ، اتجهوا بأنظارهم إلى الطبيعة الصامتة ، فلما لم يعودوا يرون آلهة ، ولا أبطالاً ، عمدوا إلى وصف مجارى الأنهار وشواخ الجبال ، فنشأ في القرن الماضي ذلك النوع من الشعر الذي يسمونه عادة بالشعر الوصفي ، تمييزاً له على غيره . هذا ، وخطر ببال بعضهم أن وصف مختلف الأشياء المادية الصامتة التي تحفل بها الأرض ، وصفاً جميلاً ، هو نوع من الشعر الذي تتميز به الديمقراطية خاصة ، وهذا في رأبي خطأ ، فهذا النوع من الشعر من خصائص عصور الانتقال وسماتها .

وإن لمقتنع بأن الديمقراطية سوف تحول خيال الإنسان آخر الأمر عن كل ما هو خارجي عنه ، كى تركزه في الإنسان وحده ، فللشعوب الديمقراطية أن تتسلى فترة من الزمن بالتأمل في الطبيعة ، ولكنها لا تتأثر حقيقة إلا بالنظر في نفسها هي . ففي هذه الناحية وحدها توجد إذن مصادر الشعر الطبيعية عند هذه الأمم ، وقد يصدق من يقولون بأن الشعراء الذين لا يستمدون وحيهم إلا منها ، سيفقدون كل ما لهم من سلطان على القلوب التي يمكن أن يسترعوها ، وسيتركون آخر الأمر وليس سوى نظارة مترمتين جامدين .

أوضحت من قبل كيف أن فكرتي التقدم ، وقابلية الإنسان للكمال قابلة للاحد لها ، من سمات العصر الديمقراطي ، فالشعوب الديمقراطية لا تحفل إلا قليلاً بما كان ، ولكنها تحلم دائماً برؤى عما سيكون ، فليس لخيالها هنا حد إذن يقف عنده ، فقد اتسع وكبر حتى تجاوز كل حد . وهنا ينفسح المجال لعبقرية الشعراء انفساحاً عظيماً يتيح لهم أن ينقلوا

(١) هكذا يراهم المؤلف من حيث تماثلهم ، وبالإضافة إلى عظمة المجمع الذي يعملون له جميعاً ، ولكن الناس في البلاد الديمقراطية لا يمكن أن يكونوا توافه في مجتمع يشجع الفنون والصناعة والعلوم والآداب وهما لكل فرد الحرية في العمل لما هو ميسر له .

ما يصنعونه مراحل بعيدة كل البعد عن العصر الذي يعيشون فيه؛ فالديمقراطية التي تغلق الماضي في وجوه الشعراء تفتح لهم أبواب المستقبل على مصراعها .

ولما كان جميع المواطنين الذين يتكون منهم الشعب الديمقراطي متساوين تقريباً، لم يستطع الشاعر أن يتخذ واحداً منهم موضوعاً له؛ على حين أن الأمة كلها تصلح موضوعاً طيباً لريشته، فما بين الأفراد من تشابه عام يجعل كل فرد منهم على حدة غير صالح لأن يكون موضوعاً للشعر. فهذا التشابه العام يخول للشعراء أن يدمجوا الأفراد كلهم في صورة واحدة، وأن ينظروا، بأخرة، إلى الشعب نفسه في جملته، فالأهم الديمقراطية تستطيع أن ترى شكلها نفسه بأوضح مما تستطيع الأمم الأخرى أن تدرك صورتها، وإن منظرأ له مثل هذا الجلال ليصلح كل الصلاح لتصوير كل ما هو مثالي .

لأتردد في الاعتراف بأن الأمريكيين لا شعراء عندهم، ولكني لأسلم بأن ليس لديهم أي معان شعرية، فالتناسق في أوروبا يكثر من الحديث عن براري أمريكا، على حين لا يفكر فيها الأمريكيون؛ فهم لا يتأثرون بفرائب الطبيعة الصامتة حتى صح لنا أن نقول عنهم أنهم لا يدركون الغابات العظيمة التي تحيط بهم إلا عندما تتهاوى أشجارها إثر ضربات فؤوس الحطابين، فأنظارهم متجهة صوب مشهد آخر: فالشعب الأمريكي مشغول بتصور مسيرته عبر هذه البراري، يجفف مستقعاتها، ويجول مجاري أنهارها، ويعمر قفارها بالسكان، ويقهر الطبيعة ويسخرها لما فيه مصلحته. فهذه المشاهد الرائعة لا تتجلى لخيال الأمريكيين الحين بعد الحين فحسب، بل إنها لتلاحق كل واحد منهم وتتجلى له في أدنى أعماله شأنًا، وفي أعظمها خطراً، فهي دائماً نصب عقولهم، ومدار تفكيرهم .

لأعرف شيئاً مسيخاً هزياً حافلاً بالمصالح التافهة - وبعبارة أخرى لأعرف شيئاً يناقض روح الشعر، مثل حياة الإنسان في الولايات المتحدة. إلا أن بين الأفكار التي توحى بها هذه الحياة، فكرة حافلة بالمعاني الشعرية تعد العصب الخفي الذي يضيئ النشاط على الهيكل بأسره .

إن كل شعب، وكل فرد من الأفراد في العصور الأرستقراطية معرض بأن يقف بمعزل عن سائر الشعوب، أو عن سائر الأفراد. أما في العصور الديمقراطية فدوام تغير أحوال الناس وتقلبها، واندفاعهم وراء تحقيق رغباتهم، تجعلهم يغيرون مراكزهم باستمرار، وتجعل سكان البلاد المختلفة يختلطون بعضهم ببعض، فيرون ويسمعون بعضهم بعضاً، وكذلك يقرضون بعضهم بعضاً. فليس أفراد المجتمع الواحد إذن هم الذين يزدادون مساواة، بل إن الجماعات نفسها لتتقارب وتشابه وتتدمج بعضها في بعض، حتى لتتجلى في جملتها لمن يراها على أنها ديمقراطية واحدة عظيمة، كل مواطن فيها أمة في ذاته. وهذا يجعل البشرية تتجلى كلها لأول مرة بارزة في جملتها للعيان. فكل ما يتعلق بالجنس البشري بأسره، وبأحواله ومستقبله، يصير مصدرأ فياضاً من مصادر الشعر .

نحج الشعراء الذين عاشوا في البلاد الأرستقراطية كل النجاح في تصوير أحداث معينة جربت في حياة شعب أو في حياة فرد، ولكن لم يحاول قط شاعر منهم أن يعالج فيما يعالج مقدرات الجنس البشرى ومصائرهم، فهذه مهمة قد يحاول الشعراء في البلاد الديمقراطية أن يضطلعوا بها.

ففى الوقت الذى يرفع فيه كل إنسان بصره إلى ما فوق بلاده، فيدرك الجنس البشرى، بأخرة، في جلته، يزداد تجلج الله لعقول عباده في كامل جلالته وسمو عظمته. فإن كان الدين الإيماني كثيراً ما يبدو ضعيفاً في العصور الديمقراطية، والاعتقاد بوجود «قوى» متوسطة بين الله والناس، أيًا كان اسمها، غامضاً، فالناس من جهة أخرى يميلون إلى أن تكون فكرتهم عن العناية الربانية نفسها واسعة كل السعة، ويبدو لهم تدخلها في شئون البشر في صورة أجل وأروع، وإذ ينظرون إلى الجنس البشرى من حيث هو كل عظيم واحد ما، فإنهم يدركون أن سننا من هذا القبيل نفسه توجه مصائرهم ومقدراتهم، مما يجعلهم يعترفون بأنهم يرون في أفعال كل فرد أثراً من تلك السنن الكونية الأزلية التى بها يدير الله شئون الناس، فهذا الاعتبار يصح أن يعد مصدراً آخر فياضاً من مصادر الشعر في العصور الديمقراطية<sup>(١)</sup>.

يبدو الشعراء الديمقراطيون تافهين دائماً ومسيخين، عندما يحاولون أن يفيضوا على الآلهة والشياطين، والملائكة صوراً مادية، وعندما يحاولون أن يهبطوا بهم من السماء إلى الأرض ليتنازعوها في السيادة عليها، أما من حاولوا أن يربطوا الأحداث التى يسجلون ذكرياتها، بسنن الله العامة التى تنظم الكون، ومن غير أن يظهروا يد الخالق الأعظم فيها، إنما يكشفون بذلك عن سنن العقل الأسمى - فلو أنهم فعلوا ذلك لأعجب الناس بقصائدهم وفهموها حق الفهم، لأن خيال أهل عصرهم يتجه هذا الاتجاه من تلقاء نفسه.

يتبنا الناس كذلك بأن الشعراء الذين يعيشون في عصور ديمقراطية سيؤثرون أن يصوروا العواطف والآراء، على أن يصوروا الأشخاص والأعمال العظيمة، فلفة الناس في البلاد الديمقراطية، وملابسهم، وأعمالهم اليومية كلها أمور ينفر منها خيال المثالي، لأنها ليست شعرية في ذاتها، ولا يمكن أن تكون كذلك. فهى أمور معهودة لكل من يريد الشاعر أن يوجه إليهم قصائده عنها. وهذا مما يدفع الشعراء باستمرار إلى الغوص على المعاني التى وراء السطح الذى تدركه الحواس، كى يقرأوا ما في صميم النفس البشرية. هذا، وليس ثمة شىء أصلح لتصوير المثالي من التنقيب في خفايا طبيعة الإنسان غير المادية. فلست أرانى بحاجة إلى أن أجوب الأرض وأذرع السماء لأستكشف شيئاً رائعاً سداه وحمته من المتناقضات، من عظمة وتفاهة لانهائية لهما، وظلمة حالكة ولألاء ساطع،

(١) يبدو أن المؤلف يشير هنا إلى La Chute d'un Ange للشاعر لامارتين وقد ظهرت سنة ١٨٣٨ قبل ظهور هذا الجزء بستين.

تستثير منك الرثاء والإعجاب، والرهبنة والاحتقار. كلها معاً، فما على إلا أن أتأمل ما يجرى في نفسي، فالإنسان يخرج من العدم، ويقضى عمره المقسوم له، ثم يختفى إلى الأبد .

فلو أن الإنسان كان يجهل نفسه كل الجهل، لما كان فيه شيء من الشعر، فمن المستحيل أن يصف المرء شيئاً ليس لديه أية فكرة عنه، وإن أدرك طبيعة نفسه إدراكاً جلياً لبقى خياله خاملاً، ولما وجد شيئاً يضيفه إلى الصورة، ولكن طبيعة الإنسان تتجلى له على نحو يتيح له أن يدرك شيئاً من ذات نفسه، ويظل الباقي في الوقت ذاته غامضاً تشمله ظلم متكاثفة يظل الإنسان فيها إلى الأبد، يتلمس فكرة كاملة عن نفسه أتم وأكمل؛ ولكن عبثاً .

فينبغي ألا نتظر إذن أن يعيش الشعر في البلاد الديمقراطية على الأساطير، أو على الذكريات والتقاليد القديمة، فلن يحاول الشاعر أن يملا الكون بكائنات مما فوق الطبيعة، لم يعد هو، ولا قراؤه يؤمنون بها، ولا أن يشخص الفضائل والردائل التي يؤثر المرء منا أن يراها على ما هي عليه فعلاً. فهذه المصادر كلها تعوزه، ولكن الإنسان باق، وليس الشاعر بحاجة إلى أكثر منه، فهو حسب. إن مقدرات الجنس البشري ومصائره، وبعبارة أخرى، مقدرات الإنسان من حيث هو إنسان، ومن غير نظر إلى بلده أو عصره، وهو واقف أمام الطبيعة وأمام الله، وبما فيه من عواطف وأهواء وشكوك - الإنسان بسعادته النادرة وبؤسه الذي يفوق حد التصور - هذا الإنسان سيصبح موضوع الشعر الأساسي في تلك الأمم، إن لم يصبح موضوعها الوحيد .

ويتأكد لنا هذا، إذا ما اعتبرنا ما يتجه إليه فحول الشعراء الذين ظهوروا منذ أن تحول العالم إلى الديمقراطية، فالمؤلفون المعاصرون الذين أبدعوا أيما إبداع في تصوير فاورست وتشايلد هارولد Childe Harold<sup>(١)</sup> ورنيه René<sup>(٢)</sup> وجوسلان Jocelyn<sup>(٣)</sup>، لم يهدفوا فيما وصفوا إلى تدوين أفعال فرد وإنما قصدوا أن يكشفوا عما في أعماق النفس البشرية من النواحي الغامضة، ويلقوا عليها أضواء تنير جوانبها .

تلك هي قصائد الديمقراطية. فمبدأ المساواة لا يهدم إذن موضوعات الشعر بأجمعها، بل يقلل من عددها، ولكنه، من جهة أخرى، يوسع مداها .

(١) قصيدة للشاعر الإنجليزي الرومانسي اللورد بايرون الذي توفى في حصار ميولونجي سنة ١٨٢٤ في حرب استقلال اليونان عن الدولة العثمانية وكان قد نظم قصيدته المشار إليها من سنة ١٨١٢، ١٨١٨. هذا وقد ترجمت بعض قطع من هذه القصيدة إلى اللغة العربية، ترجمها إن لم أكن مخطئاً المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني .

(٢) رنيه René جزء من كتاب لفرنسوا رنيه دو شاتوبريان الأديب الفرنسي المشهور (١٧٦٨ - ١٨٤٨) عنوانه .

La Genie du Christianisme

(٣) جوسلان - قصيدة طويلة للشاعر الفرنسي الرومانسي ألفونس دو لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩) نشرها سنة ١٨٣٦ .

## الفصل الثامن عشر

# كثيراً ما يصطنع الكتاب والخطباء الأمريكيون أسلوباً مفخماً

كثيراً ما لاحظنا أن الأمريكيين الذين يتحدثون عن شئون «أشغالهم» بعبارة واضحة عادة، وإن كانت خالية جافة من كل حلية وزخرف، وبسيطة كل البساطة، حتى أنهم كثيراً ما ينزلون بها إلى الحوشية المتدلة - كثيراً ما لاحظنا أن هؤلاء الأمريكيين يتفججون في أساليبهم ويفخمونها عندما يكتبون أو يتكلمون بأسلوب شعري، فتراهم يعرضون عليك هذه الفخامة في كل خطبة يلقونها من بدايتها حتى نهايتها، ويسرفون في استخدام الخيال والمحسنات البديعية في كل فرصة حتى لتصور أنهم لا يستطيعون أن يتكلموا عن شيء بأسلوب سهل بسيط .

أما الإنجليز فأقل من الأمريكيين تورطاً في مثل هذا الخطأ، وليس يعز على أحد أن يتعرف السبب الذي أدى إلى ذلك، فكل مواطن ديمقراطي مشغول عادة بالتأمل في شيء قميء كل القماءة، وذلك الشيء هو نفسه، فإن حدث وسما ببصره إلى أعلى من هذا، لم ير أمامه سوى شكل المجتمع الهائل في جملته، أو رأى ما هو أجل وأروع - منظر الجنس البشري كله . فجميع آرائه، إما جزئية جداً وواضحة كل الوضوح، وإما عامة كل العموم، وغامضة كل الغموض، أما ما بين هذين الطرفين فخواء كله . فإن هو أخرج عن دائرته، توقع دائماً أن يعرض عليه شيء يسترعى انتباهه، فعل هذه الشروط وحدها رضى أن ينتزع نفسه برهة من الانشغال بتلك المشاغل الصغيرة المعقدة التي يجد فيها فتنة لحياته واستشارة لنفسه .

ويبدو لي أن في هذا ما يكفي لتفسير أن الناس في البلاد الديمقراطية، على ما عندهم من مشاغل تافهة في الجملة، يلجأون إلى شعرائهم يطالبونهم بمعان وتصورات واسعة كل السعة وأوصاف لا حد لها ولا نهاية .

أما الكتاب فلا يسمعون إلا أن يوافقوا على مسابرة اتجاهات هم أنفسهم يشاركون بها، فتراهم على الدوام يفخمون في خيالاتهم ويتوسعون فيها حتى تتجاوز كل حد؛ وكثيراً

ما يتركون ما هو عظيم حقاً حتى يصلوا إلى ما هو ضخم هائل . لأنهم يأملون أن يجذبوا بهذه الوسيلة اهتمام الجماهير على الفور، ويركزونه بكل يسر في أنفسهم، ولم يك ثم ما يجيب آماهم . فإذا كان الجمهور لا يرى في الشعر سوى أمور جسام مترامية الأبعاد لم يكن لديه الوقت الذى يمكن له من أن يتحقق بكل دقة من صحة نسب الأشياء المعروضة على أنظاره؛ ولم يبلغ ذوقه من الدقة والسلامة ما يحول له أن يدرك في الحال المواضع التى تتباين فيها النسب، وتشذ، وهكذا تجد المؤلف والجمهور القارئ كليهما يفسد أحدهما الآخر .

وقد رأينا من قبل أن مصادر الشعر في البلاد الديمقراطية عظيمة، ولكنها ليست بالجزيرة الفيضة، فسرعان ما تنفذ، فلما لم يجد الشعراء عناصر الجمال المثالى فيما هو واقعى وحق تركوه كله وخلقوا لنا من خيالهم عجائب فظيمة، لست أخشى على شعر الأمم الديمقراطية أن يكون مسيخاً، أو أن يظل دائماً مسفا قرب سطح الأرض لا يرتفع عنه، ولكنى أخشى عليه أن يظل ضالاً هائماً في السحب ثم ينتهى به الأمر إلى أن يصور لنا أقاليم خيالية محضة، وكذلك أخشى على إنتاج الشعراء الديمقراطيين أن يقتصر على أن يقدم لنا الكثير من تلك الصور الخيالية الكبيرة الواسعة غير المتسقة، وأوصافاً مثقلة حافلة بالمبالغات، والمنشآت الغريبة، وأخوف ما أخافه أن تجعلنا تلك الكائنات الخيالية الغريبة التى تخرج من أدمغتهم، نأسف، في بعض الأحيان، على وجود عالم الواقع .

## الفصل التاسع عشر

### ملاحظات على المسرح عند الأمم الديمقراطية

عندما تأخذ آثار الثورة التي غيرت الحالة الاجتماعية والسياسية في البلاد الأرستقراطية في أن تتجلى في الأدب عند هذه البلاد، فإنها تبدو، أول ما تبدو، في المسرحيات عادة، وتظل واضحة فيها على الدوام.

فمن يشاهد قطعة تمثيلية يدهش، بشكل ما، من الأثر الذي تخلفه في نفسه، فهو ولا وقت عنده ليرجع إلى ذاكرته يستوضحها الأمر، ولا إلى من هم أكفأ منه وأقدر على الحكم في مثل هذه الشؤون، يستهدى بآرائهم؛ ولا هو يخطر بباله أن يقاوم الاتجاهات الأدبية الجديدة التي بدأ يشعر بها، بل صار يسلم بها حتى قبل أن يعرف ما هي.

وما أقدر المؤلفين على إدراك الناحية التي تتجه إليها ميول الجماهير خفية! فتراهم يبادرون إلى صياغة إنتاجهم بحسب ما يقتضيه اتجاه الجماهير هذا، فبعد أن تكون القطع المسرحية قد نجحت في إنذار الناس باقتراب الثورة الأدبية التي تتبأ للظهور تسارع هي، من جهتها، إلى إتمام هذه الثورة، فإن شئت أن تحكم سلفاً على آداب أمة أخذت تتجه نحو الديمقراطية، فما عليك إلا أن تدرس حالة<sup>(١)</sup> المسرح فيها.

وزيادة على ذلك، فالمسرحيات حتى في البلاد الأرستقراطية ذاتها، تكون الجزء الديمقراطي من آدابهم، فليس ثمة متعة أدبية أقرب إلى تناول الجماهير من تلك التي يشعر بها المرء وهو يشاهد تمثيل مسرحية ما، فالاستمتاع بها لا يقتضى إعداداً ولا دراسة خاصة، فالمسرحية تستأثر به على الرغم مما لديه من آراء سابقة، ومن جهله بموضوعها، فعندما تأخذ محبة الاستمتاع بالذات العقلية التي لم تهذب بعد، في التأثير في إحدى طبقات الشعب، دفعت بهم على الفور إلى المسرح، ومن ثم صرنا نجد مسارح الأمم الأرستقراطية تحفل دائماً برواد من غير الأرستقراطيين. ففي المسرح وحده يختلط أبناء الطبقات العالية بأخرين من الطبقتين الوسطى والدنيا، وفيه وحده، يرضى أفراد الطبقة العليا أن يستمعوا إلى آراء غيرهم من أبناء الطبقتين الآخرين، أو هم، على الأقل،

(١) ترى، هل هذه إشارة إلى النجاح العظيم الذي لاقته مسرحية بومارشيه (١٧٣٢ - ١٧٩٩) الشهيرة: زواج فيجارو (Le Mariage de Figaro) التي مثلت لأول مرة في باريس سنة ١٧٨٤؟

يسمحون لهم أن يبدوا آراءهم. فالعلماء والأدباء يجدون في المسرح، أكثر مما يجدون في غيره، مصاعب حمة تقوم في سبيل تغليب آرائهم وميولهم على ميول الشعب وأذواقه، كما يجدون كذلك صعوبات في تحصيل أنفسهم من أن يجرفهم ميول الشعب معه، فكثيراً ما كانت الصالة هي التي تضع القوانين «للألواج» و«الناوير».

فإن شق على الأرستقراطيين منع الشعب من أن يسيطر على المسارح أدركنا في سر الشعب هذا سيكون صاحب السلطان فيها إذا ما تسربت المبادئ الديمقراطية إلى العادات والتقاليد والقوانين، واختلطت الطبقات بعضها ببعض، وتقاربت العقول كما تقاربت الثروات، وفقدت الطبقة العليا سلطانها وتقاليدها مع ما فقدت من ثرواتها، وما كانت تنعم به من أوقات الفراغ - فعندئذ تتجلى نزعات الأمم الديمقراطية وأذواقها الخاصة في الأدب أول ما تتجلى، فيما يمثل أمامهم من مسرحيات، أو أن نتوقع أنها ستجلى فيه بعنف وقوة. ففي الإنتاج الأدبي المكتوب تتعدل القواعد الأرستقراطية في الأدب وتتغير تدريجياً وفي رفق، وإن شئت قلت إنها تتعدل بطريق مشروع، أما في المسرح فإنها تنقلب رأساً على عقب في ضجة وفي عنف<sup>(١)</sup>.

فالمسرحية تبرز معظم ما في الأدب الديمقراطي من الصفات الطيبة. وجل ما فيه من نقائص ذاتية، فالشعوب الديمقراطية لا تقيم وزناً كبيراً للعلم الغزير، ولا هي تحفل كثيراً بما حدث في روما أو في أثينا، ولكنها تود أن تسمع شيئاً عما يهمها هي مباشرة، فتصوير العصر الحاضر هو كل ما تطلبه. فعندما تعرض أبطال القدامى وعادتهم على المسرح، ويراعى المؤلفون الأمانة التامة في اتباع السوابق المأثورة، كان ذلك خير دليل على صحة القول بأن الطبقات الديمقراطية لم تنل بعد السيادة في شئون المسرح.

لقد اعتذر راسين Racine<sup>(٢)</sup> اعتذاراً كبيراً في مقدمته التي وضعها لمسرحيته «بريتانيكوس» Britannicus، عن أنه أدخل جونيا في عداد العذارى الحارسات، إذ لم يكن مسموحاً بقبول واحدة بينهن دون السادسة أو فوق العاشرة. كما يقول أولوس جيلوس. ومن المؤكد أن راسين ما كان بحاجة إلى اتهام نفسه، ولا إلى الدفاع عنها من أجل هذا الوزر، لو أنه كان يكتب، لمعاصرنا في الوقت الحاضر.

فهذه الحقيقة وأمتاها لاتين لنا حالة الأدب في الوقت الذي حدثت فيه فحسب، بل تبين لنا كذلك حالة المجتمع نفسه، فالمسرح الديمقراطي لا يدل أبداً على أن الأمة في حالة ديمقراطية، ذلك لأنه، كما رأينا توا، قد يحدث، حتى في البلاد الأرستقراطية، أن تؤثر

(١) يقصد المؤلف بالقواعد الأرستقراطية هنا تلك القواعد المرعية في الآداب الكلاسيكية. وقد تكون الإشارة إلى الصحيح والصفح إشارة إلى ما حدث عند تمثيل رواية فيكتور هوغو: (١٨٠٢ - ١٨٥٢) هرناني (Hernani) سنة ١٨٣٠ التي خرج فيها على نظام الدراما الكلاسيكي.

(٢) راسين: جان راسين الشاعر الفرنسي (١٦٣٩ - ١٦٩٩) وقد وضع مسرحيته التراجيدية «بريتانيكوس» ريناليس، هذه سنة ١٦٦٩.

الأذواق الديمقراطية في الدراما والتمثيل، ولكن عندما تكون الروح الأرسقراطية وحدها هى التى تسود المسرح، فهذا يدلنا قطعاً، على أن المجتمع كله أرسقراطى . ويصح لنا أن نغامر ونستنتج من ذلك أن طبقة العلماء والأدباء التى توجه الكتاب المسرحيين تكون هى نفسها صاحبة السلطان على الشعب، بل وعلى الحكم فى البلاد .

فأذواق الأرسقراطيين الرفيعة المهذبة، وسلوكهم المستعلى المتعجرف، قلما تفضل فى دفع الأرسقراطيين، هؤلاء، إذا ما وكلت إليهم إدارة المسرح، إلى أن يختاروا نوعاً مما فى الطبايع البشرية؛ فبعض أحوال المجتمع تتطلب أن يعرض على المسرح الموضوع الرئيسى الذى تهتم به، وعندئذ تصبح المناظر التى تصور آدابها وأخلاقها هى المفضلة على سواها، فثم فضائل معينة، بل وبعض رذائل معينة كذلك، يرون أنها جديرة بالعرض على المسرح، ومن ثم يكون نصيبها من النظارة الاستحسان فتنزع منهم التصفيق انتزاعاً، أما سائر الفضائل والرذائل فتستبعد ولا تعرض على المسرح، فالنظارة الأرسقراطيون لا يودون أن يشاهدوا على المسرح، أو فى غيره، سوى الأشخاص الممتازين، ولا يحركهم سوى ما يصيب الملوك من كوارث، هذا، وتصديق هذه الملاحظة على الأسلوب نفسه . فقد يميل الأرسقراطيون إلى أن يفرضوا على المؤلفين المسرحيين قواعد معينة للتعبير تكشف عن الاتجاه الذى يجب أن يراعى فى كل ما يلقى، فكثيراً ما يصبح المسرح بهذه الوسائل، ولا يصور غير جانب واحد من جوانب حقيقة الإنسان، وقد يصور أحياناً ما لا يوجد فى الطبيعة البشرية على الإطلاق، وبذلك نراه يسمو عليها أو يتجاوزها إلى ما وراءها .

أما فى البلاد الديمقراطية، فليس لدى النظارة أمثال هذه الميول التى تجعلهم يفضلون هذا كله على ذلك، وقلما يظهرون أى نفور من هذا القبيل، بل يجبنون أن يشاهدوا على المسرح ذلك الخليط من الأحوال والمشاعر والوجدان والآراء، التى تقع تحت أبصارهم، وتصيح المسرحية أحفل بالمدهش والحوشى والصادق والواقعى . ومع ذلك فقد يحدث أحياناً أن يجاوز كتاب المسرحيات فى البلاد الديمقراطية حدود الطبيعة البشرية، ولكنهم يجاوزونها من ناحية أخرى غير التى يجاوزها منها الذين سبقوهم : ففى سعيهم وراء أن يمثلوا بتفصيل دقيق غرائب اللحظة الحاضرة، والسمات الخاصة التى يمتاز بها البعض، يغفلون أن يصوروا ملامح الجنس البشرى العامة .

فإذا تحكمت الطبقات الديمقراطية فى شئون المسرح أجازت ترخيصاً وحرية كبيرة فى طرق معالجة الموضوعات، كما أجازتها فى اختيار الموضوع نفسه . ولما كان التمثيل أقرب جميع مناحى الأدب إلى الطبيعة فى نظر الأمم الديمقراطية، كان عدد المؤلفين والمتفرجين، وكذلك عدد ما ينتج من التمثيليات، فى ازدياد مستمر عند هذه الأمم . فمثل هذا الجمهور الذى يتكون من عناصر مختلفة كل الاختلاف ومبعثرة فى كثير من المواضع المختلفة - لا يستطيع أن يعترف بقواعد واحدة، ولا أن يدعى لقوانين واحدة فلا مجال للاتفاق بين

قضاة كثيرين كل الكثرة، لا يعرفون متى سيجمعون مرة أخرى؛ ومن ثم كان كل منهم يصدر حكمه على القطعة التي شاهدها مستقلاً عن غيره، فإن كان تأثير الديمقراطية عادة التشكك فيما لجميع القواعد والتقاليد الأدبية من سلطان، فإنها تلغيا كلها من على المسرح، ولا تحل محلها سوى هوى المؤلف وهوى الجمهور .

كذلك تبين الروايات التمثيلية بوجه خاص، صدق ما ذكرته بشكل عام عن الأسلوب والفن في الأدب الديمقراطي، فعندما نقرأ الانتقادات التي استدعتها المسرحيات التي ظهرت في عصر لويس الرابع عشر، يدهشنا أن ندرك ذلك الاهتمام العظيم الذي يوجه الجمهور إلى مسألة احتمال حدوث القصة وعدم احتائها، وتلك الأهمية التي يعلقها على ضرورة انسجام كل شخصية مع نفسها، فمادام الإنسان هو الإنسان دائماً فيجب ألا يصدر منه على المسرح شيء مما لا يتأتى شرحه وفهمه في سهولة ويسر. هذا، والقيمة التي يجعلونها لمراعاة اللغة المستعملة في ذلك العصر، وتلك الخصومات النافهة التي تقوم بين المؤلفين المسرحيين بشأن الألفاظ - لندهشنا كذلك أياً دهشة. فالناس في عصر لويس الرابع عشر قد بالفرا كل المبالغة فيما يعلقونه من أهمية على التفصيلات الفرعية الدقيقة التي يتيسر للمؤلف أن يدركها وهو في حجرة مكتبه، ولكنها لا تسترعى انتباه النظارة في المسارح، ذلك لأن الغرض الأساسي من كل قطعة مسرحية أن تمثل، وأن فضلها الأكبر محصور في أنها تؤثر في الجمهور وتحركه، ولكن الكثرة من النظارة كانوا في ذلك العصر من القراء أيضاً، فعندما يغادرون المسرح يستدعون المؤلف إلى ندوة تعقد في بيوتهم ليحكموا له أو عليه وهم جلوس حول مواقدهم .

تجد المسرحيات في البلاد الديمقراطية من يصغى إليها، ولكنها لا تجد من يقرؤها، فالغالبية من رواد المسارح لا يرتادونها سعياً وراء المتع العقلية، بل حباً في ماتستشره فيهم من الانفعالات والعواطف القلبية. فهم لا يتوقعون إذن أن يجدوا تحفة أدبية رفيعة، بل أن يشاهدوا مسرحية تمثل أمامهم، ومادام المؤلف يصطنع لغة بلاده ويستخدمها على الوجه الصحيح المؤلف الذي يجعلها مفهومة للنظارة، ومادامت شخصيات مسرحيته تستثير فيهم الفضول، وتوقظ العطف والمشاركة الوجدانية في نفوسهم، فهم راضون، ولا يطلبون المزيد من القصص الخيالية، بل سرعان ما يعودون إلى الحياة الواقعية، فليست دقة الأسلوب إذن هي كل ما يطلبونه لأن التزام قواعده من أقل ما يشاهد على المسرح .

أما من حيث احتمال القصة أو عدمه، فأمر لا يمكن أن يتلاءم دائماً مع الجدة والمفاجأة وسرعة الاختراع، ولذلك كان نصيبه أن يهمل، وقد تسامح الجمهور نفسه في هذا الإهمال، فكان وثاقاً تمام الثقة من أنك إن نجحت في حمل النظارة على الحضور لمشاهدة شيء يتصل بهم ويؤثر فيهم، فإنهم لا يحفلون بأى طريق جنت بهم إلى المسرح، ولا يعيرون عليك مطلقاً أنك قد استثرت انفعالاتهم على الرغم من عدم مراعاتك قواعد الدراما .

وعندما يذهب الأمريكيون إلى المسرح تتجلى فيهم، بشكل بارز كل البروز، كل تلك الميول والنزعات التي وصفتها توا، ولكن يجب أن نعترف بأن الذين يرتادون المسارح منهم لا يزالون إلى الآن قلة. ومع أن عدد رواد المسارح، وعدد المسارح نفسها، قد ازداد في الولايات المتحدة في الأربعين سنة الأخيرة فما زال الجمهور لا ينهمك في هذا النوع من التسلية إلا بتحفظ شديد، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب خاصة سبق أن مرت بالقارىء، فحسبنا هنا بضع كلمات تذكره بها ليس إلا.

لم يكن «المتطهرون» الذين أقاموا الجمهوريات الأمريكية خصوماً للملاهي فحسب، بل كانوا يشعرون بنفور خاص من المسرح، ويعدون له مسلاة بغیضة، وما دامت مبادئهم مسيطرة على الشعب، لا تنازعها مبادئ أخرى، فقد ظل التمثيل غير معروف عندهم ألبتة. كانت هذه آراء الآباء الأولين الذين أقاموا المستعمرات الأمريكية وقد تزكت آثاراً عميقة في نفوس ذويهم.

إن الاستمساك الشديد بالعادات؛ وبالصرامة في الأمور الأخلاقية، الأمرين اللذين يشاهدان في الولايات المتحدة، لم يكونا إلى الآن مما يشجع على ترقق الفن المسرحي، فليس ثم موضوعات تصلح للتمثيل في بلاد لم تشاهد كوارث سياسية فادحة، حيث الحب يؤدي إلى الزواج بطريق سهل مستقيم. فالناس الذين يقضون كل يوم من أيام الأسبوع في جمع المال، ويوم الأحد في الذهاب إلى الكنيسة، لا يكون لديهم شيء يجعل آلهة الكوميديا تستجيب إلى دعواتهم.

وحسبنا حقيقة واحدة لبيان أن المسرح لا يحظى بمحبة كبيرة من شعب الولايات المتحدة. فالأمريكيون الذين تحول قوانينهم للناس أقصى مدى من حرية التعبير في كل شيء، بل إنها لتسمح بها إلى درجة الاستهتار، نراهم، مع ذلك، قد أخضعوا كتابهم المسرحيين لنوع من الرقابة، فلا يسمح بتمثيل أية مسرحية إلا بعد الحصول على ترخيص من السلطات البلدية فيها. وهذا يوضح لنا تمام التوضيح، أن الشعوب كالأفراد يستسلمون تمام الاستسلام لشهواتهم المستولية عليهم، وبعد ذلك يحرسون كل الحرص ألا يغالوا في الاستسلام إلى تلك الميول والأذواق التي ليس لديهم منها شيء.

ليس ثمة جزء من الأدب يرتبط بأحوال المجتمع الحاضرة بروابط أوثق أو أكثر عدداً من الأدب المسرحي، فمسرحيات عصر لاتلاءم مع أحوال العصر الذي يليه، إن حدثت في الفترة التي بين العصرين ثورة هامة غيرت من عادات الأمة الأخلاقية وبدلت من قوانينها.

حقاً إنا مازلنا نقرأ ما كتبه كبار المؤلفين في عصر سابق على العصر الذي نحن فيه، ولكن المسرحيات التي وضعت لجمهور غير جمهورنا لا تسترعى الناس وتجذبهم إلى الإقبال على مشاهدتها؛ فالمؤلفون المسرحيون السالفون لم يعودوا يعيشون الآن إلا في بطون الكتب وحدها.. قد يحدث أن ذوق بعض الأفراد التقليدي أو الغرور أو «الموضة» أو عبقرية ممثل موهوب - قد تحمي المسرحيات الأرستقراطية في عصر ديمقراطي، وتستبقيا تمثل على المسرح فترة من الزمن، ولكنها سرعان ما تسقط (هذه المسرحيات) من تلقاء نفسها، فتمثيلها لا ينجح، ولكن الناس يهجرونها هجراً.

## الفصل العشرون

### بعض خصائص المؤرخين في العصور الديمقراطية

يميل المؤرخون الذين يعيشون في العصور الأرستقراطية إلى إرجاع الأحداث كلها عادة إلى إرادة أفراد معينين وإلى أمزجتهم، ويعززون أهم الانقلابات والثورات إلى أحداث صفار، فتراهم يظهرون ذكاء في تتبع الأسباب التافهة، على حين يغفلون عن إدراك أهمها.

أما المؤرخون الذين يعيشون في العصور الديمقراطية فيبدون ميولاً وخصائص عكس ما يديه أولئك على خط مستقيم، فمعظمهم لا يكادون يعززون إلى الأفراد أى تأثير على مصائر الجنس البشرى، ولا إلى المواطنين على مصائر الشعب، ولكنهم من جهة أخرى، يعززون أسباباً عظيمة هامة إلى جميع الأحداث الصغيرة.. فهاتان نزعتان متقابلتان تفسر إحداهما الأخرى.

فعندما يدرس مؤرخ العصور الأرستقراطية مسرح الأحداث لا يلبث أن يدرك أن عدداً ضئيلاً من الممثلين البارزين يضطلعون بإدارة القطعة المسرحية كلها، فهذه الشخصيات العظام التي تشغل صدر المسرح تسترعى انتباه النظارة وتركزه في نفسها هي. هذا، وبينما يجعل المؤرخ كل همه في أن ينفذ إلى صميم الدواعي الخفية التي تحفز هذه الشخصيات إلى الكلام، وتدفعها إلى العمل، إذا به يغفل شأن سائرهم. فأهمية الأشياء التي يضطلع بها بعض الناس تجعل المؤرخ الأرستقراطي يبالغ في تقدير ما قد يكون للشخص الواحد من نفوذ، وبالطبع يدفعه ذلك إلى أن يظهر أن عليه، كى يفسر دوافع الجمهور ونزعاته، أن يرجعها كلها إلى ما لفرد واحد من نفوذ خاص.

وعلى العكس من ذلك عندما يكون جميع المواطنين مستقلين بعضهم عن بعض، وكل واحد منهم ضعيف، من حيث هو فرد، فإن أحداً منهم لا يستطيع أن يكون له على الجماعة نفوذ كبير، فضلاً عن سلطان دائم عليهم هذا. وقد يبدو الأفراد لأول وهلة أنهم لانفوذ لهم مطلقاً على الجماعة، فيخيل للناس أن الجماعة تتقدم وحدها بالعمل الحر الاختيارى الذى يقوم به جميع الناس الذين تتكون منهم هذه الجماعة، مما يدفع العقل البشرى بالطبع إلى البحث عن السبب العام الذى أثر هكذا في كثير من قدرات الناس دفعة واحدة، ووجههم جميعاً في آن واحد نحو اتجاه واحد.

إلى مقتنع كل الاقتناع بأن ما لدى بعض الأفراد في الأمم الديمقراطية نفسها من عبقرية أو من رذائل أو فضائل، قد يعطل المسرى الطبيعي لتاريخ الشعب ومقدراته، أو يستعجله. ولكن هذا النوع من الأسباب الثانوية والعرضية متنوعة كل التنوع وخفى ومعقد وضعيف، ومن ثم كان تتبع هذه الأسباب وتبين كتبها في عصور المساواة أشق منه في العصور الأرستقراطية، حيث تكون مهمة المؤرخ أن يفصل من جملة الأحداث العامة، تأثير رجل معين أو تأثير فئة من الناس فحسب، فسرعان ما يميل المؤرخ مثل هذا العمل، ويضل عقله في تلك المتاهة. وإذ يرى أنه قد عجز عن أن يدرك تأثير الأفراد هذا إدراكاً صحيحاً، وإظهاره بشكل واضح، صار ينكر وينفى أن لهم تأثيراً، ويفضل أن يتحدث إلينا عن طبائع الأجناس البشرية، وعن جغرافية البلاد الطبيعية، وعن روح الحضارة، وبذلك يخفف عنهم عبء العمل ومشقاته، ويرضى قارئه إرضاء أتم بتكاليف أقل .

قال لافاييت<sup>(١)</sup> في موضوع ما من مذكراته Memoirs إن مغالاة الناس بنظام الأسباب العامة يعزى أوساط الساسة الذين من المرتبة الثانية كل العزاء. وأضيف إلى ذلك أن هذا يؤدي بأوساط المؤرخين إلى نتائج ليست أقل غرابة وعجيباً، فهذا النظام يستطيع دائماً أن يقدم لهم بضعة أسباب قهرية تخلصهم من أشق جزء من كتابهم، وتعاون ما في عقولهم من تخول، أو من عجز؛ وفي الوقت نفسه تضيء على هؤلاء المؤرخين شرف التفكير العميق .

أما من جهتي، فأرى أنه لا يوجد عصر يمكن أن يعزى فيه جزء من الأحداث التي تجري في هذا العالم إلى حقائق عامة جداً، وعصر آخر يعزى فيه إلى مؤثرات جزئية خاصة كل الخصوص. فهذان النوعان من الأسباب يعملان باستمرار، ولا يختلفان إلا من نسبة أحدهما إلى الآخر، فالحقائق العامة تصلح لتفسير أشياء أكثر في العصور الديمقراطية عنها في العصور الأرستقراطية. أما الأشياء الأقل فعزى عندئذ إلى المؤثرات الفردية، وفي العصور الأرستقراطية نجد العكس، فالمؤثرات الخاصة تكون أقوى وأعظم، على حين أن عمل الأسباب العامة يكون أضعف، اللهم إلا إذا اعتبرنا الظروف نفسها عاملاً يتحول لبعض الأفراد أن يخالفوا نزعات سائر المؤرخين الفطرية .

فالمؤرخون الذين يعنون بوصف ما يجري في البلاد الديمقراطية على حق إذن، في أن يعزوا الكثير إلى الأسباب العامة، وفي أن يوجهوا معظم انتباههم إلى استكشاف هذه الأسباب، ولكنهم مخطئون في إنكارهم كل الإنكار ما للأفراد من تأثير خاص، مجرد أن تتبع هذا التأثير ومعرفته ليس من السهولة في شيء .

(١) هو المركز دو لافاييت (١٧٥٧ - ١٨٣٤) - وكان قد تطوع في جيش التحرير الأمريكي بقيادة جورج واشنطن، ثم اشترك في الثورة الفرنسية وكان ينصح بالاعتدال حتى اضطر إلى مغادرة فرنسا ولم يعد إليها إلا بعد سبع سنوات ولم يشارك في الحياة العامة فيها إلا بعد سقوط نابوليون فاشترك في ثورة ١٨٣٠، أما مذكراته التي يشير إليها المؤلف فقد نشرت سنة ١٨٣٤ .

والمؤرخون الذين يعيشون في العصور الديمقراطية لا ينزعون إلى تعيين سبب عظيم لكل حدث يحصل فحسب، بل إنهم يميلون كذلك إلى ربط الأحداث بعضها ببعض ربطاً يؤدي إلى استنباط نظام منها.. أما في العصور الأرستقراطية فيتجه انتباه المؤرخين دائماً إلى الأفراد، على حين يفوتهم ما بين الحوادث من ترابط، أو بعبارة أخرى، إنهم لا يعتقدون بوجود شيء من قبيل هذا الترابط، فسمط التاريخ يبدو لهم أنه ينقطع في كل لحظة بانقطاع حياة الفرد؛ والأمر على العكس من ذلك في البلاد الديمقراطية، حيث يرى المؤرخ من الأعمال والأحداث أكثر مما يرى من الأفراد الذين يقومون بها، فيسهل عليه كل السهولة أن يقيم نوعاً من التوالي والتواتر بين تلك الأحداث .

ليس في الآداب الكلاسيكية القديمة التي خلفت لنا الكثير من المؤلفات التاريخية الرائعة أى نسق عظيم من الأنساق التاريخية، على حين أن أوفر الآداب الحديثة ليحفل بأمثال هذه النظم، ويبدو أن قدامى المؤرخين لم يستخدموا استخداماً كافياً تلك النظريات العامة التي ينزع كتابنا المؤرخون إلى الإسراف فيها .

هذا وللمؤرخين الذين يكتبون تواريخهم في عصور ديمقراطية، نزعة أخرى أشد خطراً، فإذا ما ضاعت آثار عمل الفرد في الأمة فإننا كثيراً ما نجد العالم يظل يتحرك من دون أن تظهر القوة التي تحركه سافرة. ولما كان من الصعوبة بمكان أن نميز ونحلل الأسباب التي، وهي تؤثر في إرادة كل فرد من أفراد الأمة، تتحد في النهاية وتحمل على استحداث حركة في الأمة برمتها، فإن الناس ينساقون إلى الاعتقاد بأن هذه الحركة غير إرادية وأن الجماعة تخضع على غير إرادتها لقوة عليا تسيطر عليها؛ بل وحتى عندما نظن أن الحقيقة العامة التي تسيطر على جميع الأفراد قد تم استكشافها في هذه الدنيا، فإن مبدأ حرية الإرادة لا يصير بذلك مبدأ يقينياً. إن سبباً يؤثر في ملايين الناس دفعة واحدة، وقويماً كل القوة حتى إنه يوجههم جميعاً قسراً في اتجاه واحد، ليبدو شيئاً لا يمكن مقاومته، فبعد أن يدرك العقل أن الناس يستسلمون لهذا السبب فعلاً ويدعون له فإنه ليكاد يستبسط أن البشر لا قبل لهم بمقاومته .

لا ينكر المؤرخون الذين يعيشون في البلاد الديمقراطية إذن أن لبعض المواطنين قدرة على التأثير في مقدرات الشعب ومصائره، بل إنهم ليجردون هذا الشعب نفسه من أية قدرة على تعديل أحواله الخاصة به، ويعززون مصائره كلها إما إلى مشيئة إلهية لامرد لحكمها، وإما إلى ضرورة عشواء. فهم يرون أن كل أمة مقدور عليها، بطبيعة موقعها وأصلها وتاريخها وأخلاق أهلها - مصر معين لا تستطيع أية جهود أن تغيره وتحوره. ومن ثم تراهم يربطون كل جيل بالذي قبله، ويظنون يرجعون بنا من جيل إلى جيل حتى يصلوا بنا إلى أصل العالم ونشأته، وبذلك ينشئون سلسلة هائلة محكمة تحيط بالجنس البشرى كله، وتربطه كله ببعضه بعض. إنهم لم يكفهم أن يبينوا أسباب ما يجري من أحداث، بل أرادوا

أن يظهروا لنا أنها ما كانت لتستطيع أن تحدث بشكل آخر غير الذى حدثت به . فهم يختارون أمة وصلت إلى مرحلة من مراحل تاريخها ثم يؤكدون لنا أنها لم يكن يسعها إلا أن تسلك الطريق الذى سلكت وأدى بها إلى أن تبلغ ما بلغت ، فتقرير ذلك أيسر عليهم كل اليسر من أن يبينوا لنا كيف يكون فى وسع هذه الأمة أن تختار لها طريقاً آخر أفضل مما اختارت أن تسلكه .

وعندما نطالع ما كتبه مؤرخو العصور الأرسقراطية ، وبخاصة القدامى منهم ، يخيل إلينا أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى أن يكون سيد نفسه ، لكى يسيطر على توجيه مصيره ، ويحكم بنى جنسه ، وعندما نقرأ كتب التاريخ التى وضعت فى عصرنا يبدو لنا فيها أن الإنسان لا حول له ولا قوة ، لا على نفسه ولا على كل ما حوله . لقد علم مؤرخو العصور القديمة الناس كيف يأمرن ، أما مؤرخو عصرنا فلم يعلموهم سوى أن يطيعوا ، فكثيراً ما يبدو المؤلف منهم فى كتاباته عظيماً ، ولكن بنى البشر أنفسهم ضئال كل الضئالة .

فإذا حدث وانتقل مذهب الضرورة الحتمية هذا ، وهو مذهب حبيب إلى قلوب المؤرخين فى العصور الديمقراطية - انتقل من المؤلفين إلى قرائهم ، حتى يعدى الجماعة كلها ، ويستولى على عقل الجماهير ، فإنه سرعان ما يشمل نشاط المجتمع الحديث .

وزيادة على ذلك فأمثال هذه المذاهب خطيرة بوجه خاص فى عصرنا هذا ، فأهله ميالون إلى التشكك فى حرية إرادة البشر لأن كل واحد منهم يشعر بأنه مقيد من كل جانب بضعفه الخاص ؛ إلا أنهم لا يزالون مع ذلك مستعدين للاعتراف باستقلال الناس وقوتهم ، ماداموا متحدين فى مجتمع . فلنجعل هذا المبدأ نصب أعيننا ، إذن ، لأن الهدف الأكبر فى عصرنا الآن هو النهوض بنفسوس الناس والسمو بها ، وليس إكمال إخضاعها وإذلالها .

## الفصل الحادى والعشرون

### البلاغة البرلمانية فى الولايات المتحدة

الناس فى البلاد الأرسقراطية متصلون كلهم بعضهم بعض . ويعتمدون بعضهم على بعض ؛ ففى نظام متدرج للمراتب والمقامات ، يربطهم جميعاً ، ويتطلب من كل واحد منهم أن يلتزم مكانته ولا يتعداها ، كما يتطلب من الأمة كلها أن تظل خاضعة طيعة .. ولا تخلو مجالس هذه الأمم السياسية من شىء من هذا النظام ، فكل حزب من أحزابها منضو بطبيعة الحال تحت حكم زعيم معين يذعن له كل أعضاء الحزب مدفوعين بدافع يكاد يكون غريزياً ، وإن نشأ فى الواقع من عادات اكتسبوها فى مجالات أخرى .. وبذلك ينقلون عادات المجتمع الكبير إلى المجتمعات الصغرى كالجالس وغيرها .

وكثيراً ما يحدث فى البلاد الديمقراطية أن يتجه عدد كبير من المواطنين نحو نقطة واحدة بعينها ، وإن كان كل واحد منهم يسير نحوها من تلقاء نفسه وهو يخادع نفسه على الأقل . فيقول إنه إنما يسير إليها من غير أى دافع خارجى . فلما كان قد اعتاد الاستقلال بتوجيه سلوكه وتصرفاته ، وينظمها بحسب دوافع ثابتة من ذات نفسه هو . صار يضيق ذرعاً بأى إملاء يفرض عليه .. فهذا الميل إلى الاستقلال ، وعادة ممارسته باستمرار يلازمان المرء منهم فى مجالس الأمة ؛ فإن قبل أن يتفق مع آخرين على تحقيق غرض معين . آثر أن يترك شأنه حراً فى العمل على إنجاح العمل المشروع بطريقته هو الخاصة على الأقل . ومن ثم كانت الأحزاب فى البلاد الديمقراطية تأنف من الرقبة والإشراف فلا تستطيع الصبر على توجيهات زعمائها ولا تسلس لهم قيادتها إلا فى لحظات الخطر الداهم العام الشديد . وحتى هنا ، نجد سلطة الحكومة التى قد تتمكن من جعل الناس فى هذه الظروف الخرجة يتكلمون ويعملون ، لا تستطيع أن تحملهم على أن يلتزموا الصمت .

ولا يخفى أن أعضاء المجالس السياسية فى الأمم الأرسقراطية يختارون عادة من الأرسقراطيين أنفسهم ، وكثيراً ما يكون المركز الذى يشغله العضو منهم فى المجالس فى نظره دون ذلك الذى يتبوأ بطبيعة حقه الخاص فى البلاد ، مما يعزبه كل العزاء عن عدم قيامه بدور مرموق فى مناقشات الشئون العامة فى المجالس ، ويمنعه من التلهف على القيام بأى دور ثانوى فيها .

أما في أمريكا فكثيراً ما يحدث ألا يكون للنائب أى شأن يذكر إلا بفضل مركزه في المجلس، ومن ثم كانت حاجته الدائمة إلى مكانة مرموقة فيه تعذبه وتقض مضجعه، فهو يشعر برغبة ملحة تدفعه إلى مقاطعة زملائه الأعضاء كى يقحم هو آراءه ويبرزها. هذا وليس غروره وحده الذى يحمله على مواصلة السير في طريقته هذه، بل لانسى غرور أهل دائرته الانتخابية، ولا الضرورة التى تقضى النائب أن يعمل على إرضائهم باستمرار. أما في الأمم الأرستقراطية فيندر أن نجد عضواً من أعضاء المجلس يعتمد كل الاعتداد على الناخبين من أهل دائرته؛ فهو في نظرهم لا يعدو أن يكون ممثلاً لهم لاغنى عنه بشكل ما، وقد يكونون هم أنفسهم المعتمدين عليه الاعتداد كله في بعض الأحيان، فإن هم رفضوا في النهاية أن يعيدوا انتخابه، فمن السهل عليه أن ينتخب في دائرة أخرى، أو أن يتنحى عن الحياة العامة، ويجيا حياة كلها كسل وفراغ، ولها مع ذلك روعتها وبهجتها له. أما في دولة ديمقراطية مثل الولايات المتحدة فمن المتعذر أن يكون للنائب أى سلطة دائمة على عقول ناخبيه، فمهما كان عدد الناخبين في دائرته صغيراً، فعدم استقرار أمور الديمقراطية، يجعله يكيف نفسه بحسب الأحوال، ويعمل ما في وسعه لإرضاء ناخبيه والتقرب إليهم باستمرار، لأنه لا يستطيع أن يستوثق دائماً من أنصاره، فإن حدث وانفضوا من حوله، وجد نفسه وحيداً لا موارد له يعتمد عليها؛ فمركزه الطبيعي ليس من السمو بحيث يجعله معروفاً بسهولة لغير الذين على كتب منه. هذا، وفي ذلك الاستقلال الكامل الذى يعيش فيه المواطنون، لا يستطيع أن يأمل أن يفرضه أصحابه، أو يفرضه الحكومة نفسها، على دائرة انتخابية لا تعرفه. فمصيره مرتبط بدائرته الانتخابية التى يمثلها إذن، وعليه أن يبدأ من هذا الركن من العالم ويرتفع بنفسه ليحكم الشعب، ويؤثر في مصائر العالم كله.. فطبعي إذن أن يفكر أعضاء المجالس السياسية في البلاد الديمقراطية في ناخبيهم، على حين يفكر أعضاء المجالس في البلاد الأرستقراطية في مصالح حزبهم أكثر مما يفكرون في إرضاء ناخبيهم.

ومن ثم كان الذى ينبغى أن يقوله النائب لإرضاء الناخبين من أهل الدائرة ليس دائماً ما يجب أن يقال في سبيل خدمة الحزب الذى ينتمى إليه خدمة صادقة، ولا هو بالرأى السياسى الذى يقول به أعضاؤه، وكثيراً ما تقضى مصلحة الحزب العامة ألا يتحدث النائب الذى ينتمى إليه في المسائل الكبرى التى لا يفهمها حق الفهم؛ وألا يتكلم إلا قليلاً في المسائل الصغيرة التى تعوق سير المسائل الكبرى أو تربكها؛ وعليه أحياناً ألا يتكلم أبداً في معظم الأحوال. فقد يكون التزامه الصمت أكبر خدمة يقدمها لبلاده خطيب قليل الكفاية. ومع ذلك فالناخبون من أهل الدائرة لا يرون في نائبهم أن يكون على هذا النحو. فقد اختاروه نائباً عنهم ليشارك بنصيب في حكومة البلاد؛ ففكرتهم في مقدرته عظيمة بالغة. وإذا كان الناس يدون عادة أعظم شأناً كلما كان ما حولهم أصغر وأدنى منهم، جاز لنا أن نقول إن الفكرة التى يكونونها عن النائب تتضخم وتصبح أعلى بكثير كلما قلت

المواهب في أهل الدائرة التي يمثلها . ومن ثم فكثيراً ما يحدث أن يزداد أمل الناخبين في تحقيق ما ينتظرونه منه كلما قل ما يجب أن يتوقعوه من نائبهم ، ومهما كان هذا النائب قليل الكفاية ، فإنهم لا يترددون في أن يطالبوه ببذل جهود جبارة تتناسب مع المرتبة التي رفعوه إليها .

وزيادة على مركز النائب ، من حيث هو أحد المشرعين للولاية ، فالناخبون يعدونه راعي دائرتهم وحاميا الطبيعي في المجلس التشريعي ، بل إنهم ليحترقونه عادة وكيلاً عن كل ناخب منهم أيده في الدائرة - وإنهم ليخادعون أنفسهم باعتقادهم أنه لن يكون أقل غيرة في دفاعه عن مصالحهم الخاصة عن تحمسه للدفاع عن مصالح البلاد جمعاء . ومن ثم كان الناخبون واثقين سلفاً من أن نائبهم الذي وقع عليه اختيارهم سيكون خطيباً مفوهاً وأنه سيتكلم كثيراً كلما استطاع إلى الكلام سيلاً .. وأنه في الحالات التي يضطر فيها إلى الامتناع عن الكلام سيحاول ، مع ذلك أن يوجز في خطبه ، على قلتها ، بحث جميع المسائل الكبرى التي تهم الولاية ، ويذكر فيها جميع ما يشكون منه من المتاعب الصغيرة ، فعليه أن ينتهز كل فرصة تتاح له ويعلن للناس ما هو قادر على أن يعمل ، وبدلاً من أن يظل يسرف في جهوده وقواه ، عليه أن يركزها في بعض الأحيان في حيز صغير حتى يقدم لأهل دائرته الانتخابية أو لنفسه هو أيضاً ، خلاصة كاملة رائعة . فهم على هذا الأساس يعطونه أصواتهم في الانتخابات التالية .

هذه أحوال تدفع الرجال المخلصين المتوسطي الكفاية إلى اليأس ، فإنهم لعلمهم بمدى قدراتهم ، ما كانوا يتقدمون للخطابة أبداً لولا الإلحاح عليهم ، وعندما يتقدم النائب إلى منصة الخطابة ويأخذ في الكلام فيملأ قلوب أصدقائه خوفاً عليه ، وعندما يتدهور ويندفع ويلقى بنفسه وسط مشاهير الخطباء فإنه يربك المناقشة ويسئم المجلس ويرهقه .

فجميع القوانين التي تؤدي إلى جعل النائب معتمداً على الناخبين لا تؤثر في مسلك المشرعين فحسب ، بل ، كما أشرت في موضع آخر ، تؤثر كذلك في اللغة والعبارات التي يستخدمونها ، فهي تؤثر في المسائل والموضوعات نفسها ، وفي الطريقة التي تناقش بها .

فلا يكاد يوجد عضو واحد من أعضاء الكونغرس يرضى بالعودة إلى بلده قبل أن يرسل إلى أهل دائرته الانتخابية بخطبة واحدة على الأقل ، مما ألقاه ، ولا من يستطيع أن يتحمل أن يقاطع قبل أن يكون قد ضمن خطبته كل ما يمكن أن يقال من اقتراحات نافعة تمس الأربعة والعشرين<sup>(١)</sup> ولاية التي يتنظمها الاتحاد ، ولا سيما الدائرة التي يمثلها . ولذلك تراه يعرض على عقول السامعين سلسلة من الحقائق الهامة الكبرى ( التي يحسن تفهمها ، ولا يحسن التعبير عنها ) ويذكر تفاصيل نافهة يعرف حقاً كيف يقف عليها بسهولة

(١) كان هذا عدد الولايات وقت زيارة المؤلف لأمريكا .

ويعبر عنها كذلك. ومن ثم، فكثيراً ما تكون المناقشات في هذا المجلس العظيم غامضة مضطربة، فتبدو كأنها تجر أذيالها في ثقل وبطء بدلاً من أن تتجه نحو الهدف المنشود مباشرة. ويخيل إلى أن مثل هذه الحال ستجلى دائماً في المجالس العامة في البلاد الديمقراطية.

قد تنجح الظروف السعيدة، والقوانين الرشيدة، في أن تجتذب إلى المجلس التشريعي في الأمة الديمقراطية رجالاً أكفاء ممن يرسلهم الأمريكيون إلى الكونجرس، ولكن ليس ثم شيء يستطيع أن يمنع الرجال المتوسطى الكفاية الذين وصلوا إلى مقاعد المجلس فعلاً، من أن يظهروا أنفسهم أمام الجمهور بكل وسيلة من الوسائل راضين مغتبيين. وهذا داء غير قابل للشفاء التام في نظري، فهو لم ينشأ في «تكتيك» هذا المجلس فحسب، بل نشأ أيضاً في نظامه وفي دستور البلاد نفسها. والظاهر أن سكان الولايات المتحدة أنفسهم ينظرون إليه على هذا الضوء ذاته؛ وتتجلى خبرتهم الطويلة بالحياة النيابية، لا في الامتناع عن إلقاء خطب سقيمة، بل في أن يرضوا في شجاعة بأن يستمعوا إلى إلقائها.. فهم يستسلمون إلى هذا الأمر استسلامهم إلى شر علموا بالخبرة، أنه شر لا بد منه.

كشفنا عن الجانب النافه من جوانب المناقشة السياسية التي تدور في المجالس النيابية في الدول الديمقراطية، وعلينا الآن أن نعرض للجانب الرائع منها.. فما حدث في برلمان إنجلترا في المائة والخمسين سنة الماضية لم يكن له صدى كبير خارج تلك البلاد، فالآراء والمشاعر التي عبر عنها الخطباء لا تستثير أى عطف من أى شعب من الشعوب الأخرى، حتى أقربها إلى مسرح الحرية البريطاني العظيم، ذلك، على حين أن أوروبا كلها قد استثيرت بالمناقشات الأولى التي دارت في أصغر مجالس المستعمرات الأمريكية في عصر الثورة.

وليس مرد هذا إلى ظروف خاصة وعرضية، بل إلى أسباب هامة باقية. فلا أستطيع أن أتصور شيئاً أروع ولا أقوى من خطيب عظيم يناقش مسائل خطيرة من مسائل الدولة في مجلس ديمقراطى.. وإذا لم يعد ثمة طبقة ترسل نواباً عنها إلى المجلس ليمثلوا مصالحها الخاصة، ويدافعوا عنها، صار الخطيب يوجه كلامه إلى الأمة جمعاء ويتكلم باسمها، مما يجعل آراءه واسعة عامة، ويزيد عبارته رصانة وقوة. ولما لم يعد للسوابق هنا أية قيمة، ولم تعد ثمة امتيازات خاصة معينة، ولا حقوق ذاتية خاصة بأفراد معينين، اضطر العقل أن يلجأ إلى الحقائق العامة المستمدة من الطبيعة البشرية لحل المسألة المعينة المعروضة على بساط البحث، فلا غرو أن كانت المناقشات السياسية التي تجرى في أمة ديمقراطية، مهما كانت هذه الأمة صغيرة، على درجة من السعة كثيراً ما تجعلها جذابة تسترعى اهتمام الجنس البشرى كله.. فالتاس كافة يهتمون بهذه المناقشات، لأن موضوعها هو الإنسان نفسه، والإنسان واحد في كل مكان.

وعلى النقيض من هذا، فمن بين أعظم الأمم الأرستقراطية تجرى مناقشة أكثر

المسائل عمومية في الغالب دائماً على أساس من بعض الحجج الخاصة المستمدة من الممارسة في وقت معين أو من حقوق طبقة معينة والتي تهم هذه الطبقة وحدها دون غيرها أو تهم معظم الناس الذين يتصادف وجودهم ضمن هذه الطبقة .

فإلى هذا السبب ، وإلى عظمة الشعب الفرنسى ، وكذلك إلى ميول الشعوب التى تستمع إليه وتتبعه ، يجب أن يرجع هذا التأثير البالغ الذى قد تحدثه فى العالم المناقشات الفرنسية فى الشؤون السياسية ، فكثيراً ما كان يتحدث خطباء فرنسا إلى البشر أجمعين ، حتى ولو كان كلامهم موجهاً إلى الفرنسيين وحدهم .